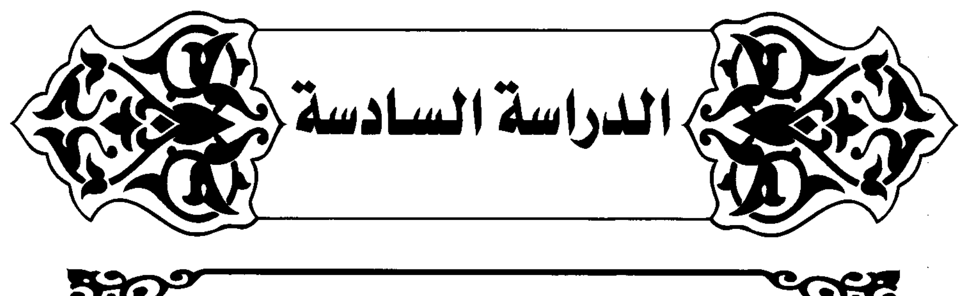
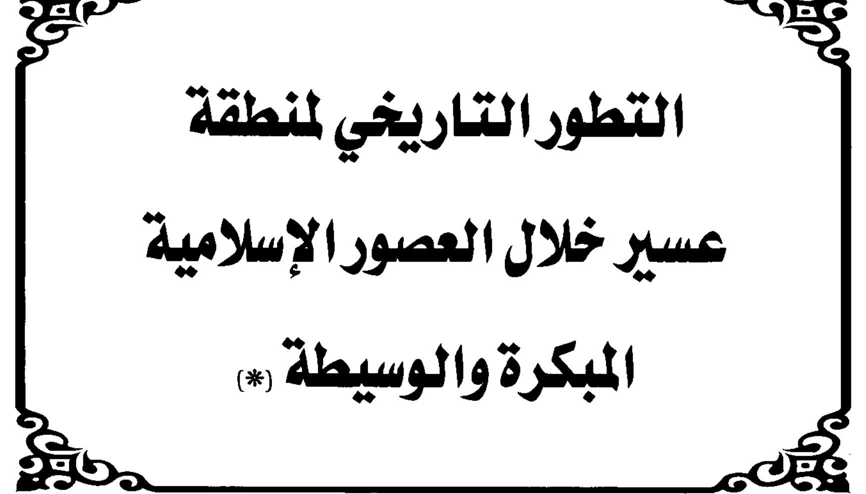
الأبحاث والدراسات 78

التطور التاريخي لمنطقة عسير خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة (*)

أ.د. غيثان بن علي بن جريس

(*) دراسة منشورة في كتاب : دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة (ق١ ـ ق١٠ هـ / ق ٧ ـ ق ١٦ م)، لغيثان بن جريس، (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣١ ـ ١٤٣٢هـ / ٢٠١٠ ـ ٢٠١١م)، (الجزء الثاني)، ص ص ٢٥١ – ٢٩٨ . كما نشرت في (موسوعة المملكة العربية السعودية) (الرياض، ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م) (المجلد العاشر)، ص ص ١٤٥ ـ ١٦٠ .





إعداد

أ . د. غيثان بن علي بن جريس

(*) هذه الدراسة ، الخاصة . بمنطقة عسير ، نشرت لأول مرة في موسوعة المملكة العربية السعودية (المحور التاريخي ، مج (١٠) مكتبة الملك عبد العزيز العامة (الرياض ، ١٤٣١ هـ/ ٢٠١٠ م) .

محتويات الدراسة السادسة

م	العنوان	أرقام الصفحات
أولاً	مفهوم عسير	٢٥٣ – ٢٥٩
ثانياً	نبذة عن الوضع الجغرافي والبشري لبلاد تهامة والسراة العسيرية .	٢٦٠ – ٢٦٣
ثالثاً	بلاد عسير أثناء مرحلة الدعوة المكية	٢٦٤ – ٢٦٦
رابعاً	بلاد عسير أثناء مرحلة الدعوة المدنية	٢٦٦ – ٢٧٨
خامساً	بلاد عسير منذ عصر الخلافة الراشدة حتى أواخر العصر الإسلامي الوسيط .	٢٧٨ – ٢٩٨

أولاً : مفهوم عسير :

رأيت من المناسب أن نقدم للقارئ الكريم نبذة عن مفهوم التسمية لهذه البلاد ، وعن المترادفات لها والمستخدمة في أيامنا هذه ، كإقليم عسير ، أو بلاد عسير ، أو منطقة عسير ، أو عسير قصد الاختصار . والذي يتبادر للأذهان ، هل كانت عسير معروفة للجغرافيين والمؤرخين الأوائل وبهذا الاسم ؟ فإذا كان الجواب بالنفي ، فكيف ظهرت هذه التسمية ، وما الدافع في إطلاق التعميم عليها ؟ وهل حلت محل تسميات سابقة لها ؟ . والثابت في المصادر الجغرافية والتاريخية ، وكتب التراث الإسلامي ، عدم ذكر هذه التسمية وبيان معالمها الجغرافية ، باعتبارها وحدة مستقلة عن الحجاز أو اليمامة أو البحرين أو اليمن ، والتي تعد إدارياً تابعة لدار الخلافة بالمدينة المنورة ، ثم دمشق وبغداد أيام الأمويين والعباسيين .

وفي هذا الصدد يشير الهمداني (٢٨٠ – ٣٣٤هـ / ٨٩٣ – ٩٤٥ م) في كتابه ((**صفة جزيرة العرب**)) إلى اسم عسير ، ويذكر ما نصه : " **ويصالي قصبة جرش أوطان حزيمة من عنز ، ثم يواطن حزيمة ، من شاميها عسير ، قبائل من عنز وعسير يمانية تنزرت ، ودخلت في عنز ، فأوطان عسير إلى رأس تية ، وهي عقبة من أشراف تهامة ، وهي ، أبها وبها قبر ذى القرنين فيما يقال عثر عليه في رأس ثلاثمائة من تاريخ، الهجرة ، والدارة ، والفتيحاء، واللصبة، والملحة، وطبب،**

وأتانة، وعبل، والمغوث، وجرشة، والحدبة، هذه، أودية عسير كلها ..." [١] ، وفي موضع آخر يذكر الهمداني ما يلي : " **والدارة ، وأبها ، والحللة ، والفتيحا ، فحمرة وطبب ، فأتانة والمغوث ، فجرشة ، فالأيداع أوطان من ،عسير من عنز وتسمى هذه أرض الطود...** " [٢].

والشيء المميز في هذه المعلومات التي أوردها الهمداني ، هو قدمها الذي يعود إلى بداية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، وما عدا ذلك فإنها غير كافية في توضيح تسمية بلاد عسير ، وإنما أوردها ضمن عنوان سماه ((**جرش وأحوازها**)) وبمعرفة موقعها من سياق الحديث في ذكر المواطن التي أشار إليها الهمداني ، نجدها تشغل مساحة صغيرة من مخلاف أو (إقليم جرش) الذي كان يشمل أغلب أجزاء عسير السروية [٣] في وقتنا الحاضر ، ولم تكن عسير في عهد الهمداني تشغل إلا جزءاً بسيطاً ، تمثله المواقع القائمة عليه الآن

---

(١) الحسن بن أحمد الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع (الرياض: منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م) ، ٢٥٦ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) غيثان بن علي جريس " تاريخ مخلاف جرش (عسير) خلال القرون الإسلامية الأولى . مجلة العصور،٩، جـ١(١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ٦٣-٧٨، للمؤلف نفسه، دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة (ق١هـ-ق١٠هـ/ ق٧ م – ق ١٦م) . (الرياض : مطابع العبيكان، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م) ، جـ١، ٩٣-١٢٦ .

مدينة أبها وما حولها ، أو ما يسمى بمواطن قبائل عسير المعروفة باسم: بني مغيد ، وعلكم ، وربيعة ورفيدة ، وبني مالك (١).

وبعد الهمداني جاء العديد من الجغرافيين والرحالة المسلمين الأوائل فأشاروا لأجزاء من منطقة عسير دون تسميتها بهذا الاسم ،فالبعض منهم ذكر أقسام شبه الجزيرة العربية بما فيها أجزاء من منطقة عسير وضموها إلى بلاد الحجاز ، وأحياناً سماها بعضهم بسلسلة جبال الحجاز (٢)، وبخاصة القسم الجبلي من السلسلة ، وهي جزءٌ من بلاد السراة ، وأحياناً أخرى سماها آخرون باسم السروات التي سميت بتسميات متعددة حسب أقسامها ، منها ، سراة جنب ، وسراة عنز ، وسراة الحجر ، وسراة خثعم ، وسراة دوس . وسراة بجيلة ، ثم استمروا في ذكر سروات أخرى حتى الطائف (٣)، وهذ ا التركيز من جانب بعض الجغرافيين ، الذين أوردوا مسمى السروات قد أوضح لنا مجموعة أسماء السروات التي تقع في إقليم عسير في عصرنا الحاضر ، وهي سراة جنب (قحطان) ، وسراة عنز

(١) غيثان بن علي بن جريس ، أبها حاضرة عسير (دراسة وثائقية) (الرياض : مطابع الفرزدق ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م)، ١٤ – ٨٧ .

(٢) لمزيد من الاطلاع ، انظر ، صالح أحمد العلي ،" تحديد الحجاز عند المتقدمين "، مجلة العرب ، جـ ١ (١٣٨٨ هـ / ١٩٧٨ م) ، ١-٩ ، عبد الله الوهيبي ، "الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب " ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الرياض ، جـ ١ (١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م) ، ٥٣ – ٧٠ .

(٣) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ١١٩ – ١٢٠ ، ٢٦١ ، ٢٧٩ ، أبو بكر أحمد محمد الفقيه ، كتاب البلدان ، تحقيق أم . دي . غوي . (ليدن : مطبعة بريل ، ١٣٠٢ هـ/ ١٨٨٤م)، ٣١ – ٣٢ ، شمس الدين أبو عبد الله المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق ، أم . دي . غوي . (ليدن : مطبعة بريل ، ١٨٧٧ م)، ١٠٤ .

(عسير وشهران) ، وسراة الحجر ، (والمقصود بها بلاد بللحمر ، وبللسمر ، وبني شهر ، وبني عمر) وسراة خثعم (وهي أجزاء من بلاد بلقرن وشمران وخثعم وعليان) ، دون أن يرد ذكر اسم عسير على وجه الإطلاق في التسمية [١] ، وفي روايات أخرى ذكر مصطلح مخاليف أو نواحي ، كأن يقال مخلاف جرش ، أو تبالة (في الأجزاء الجبلية السروية)، ومخلاف بارق أو حلي ، وقنونا وغيرها من المسميات (في الأجزاء التهامية) أو نجران أوحلي أو تهامة وغيرها من المسميات دون ذكر مسمى عسير على تلك النواحي أو المخاليف [٢] .

والواقع أن ما يشتمل عليه مصطلح إقليم عسير الحالي لم يكن معروفاً لدى المؤرخين والجغرافيين الأوائل ، وإنما جميع الولايات الكبرى لشبه الجزيرة العربية (كاليمن ، والحجاز ، واليمامة ، والبحرين) كانت تابعة لدار الخلافة الإسلامية في دمشق ثم بغداد ، وكثيراً ما كانت تشمل الأجزاء الداخلية في بلاد تهامة والسراة ، أو البلاد الواقعة بين مكة المكرمة والطائف شمالاً . وحواضر اليمن الكبرى جنوباً كانت كلها تخضع في بعض الأحيان لسلطة شيوخ القبائل المحليين في تلك الأجزاء ، وقد نستنتج أن بلاد عسير بما حولها من المناطق لم تكن لها حدود سياسية ثابتة وإنما

---

(١) غيثان بن علي بن جريس . " بلاد تهامة والسراة كما وصفها الرحالة الجغرافيون المسلمون الأوائل ق ٣ ، هـ - ق ٨ هـ ". مجلة المؤرخ العربي ، ع ٢ ، جـ ١ (١٩٩٤ م) ٧٣ - ١٠٠ .

(٢) انظر ، أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي ، كتاب البلدان ، تحقيق أم . دي . غوي (ليدن : مطبعة بريل ، ١٨٩١ م)، ٣١٤ - ٣٢٠ ، أبو القاسم عبيد الله بن خرداذبة ، كتاب المسالك والممالك ، تحقيق أم . دي . غوي (ليدن: مطبعة بريل،١٣٠٦ هـ/١٨٨٩م) ، ١٣٣- ١٣٩.

كانت تعتمد على المفهوم الجغرافي ، فعسير لم تكن معروفة كوحدة جغرافية وإدارية خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة، لكنها تمتعت باستقلال إداري دون غيرها من مناطق الجزيرة ، وإن كان الأمر يتفق مع وحدتها الجغرافية المتميزة بحسن موقعها ، وصعوبة تضاريسها ، الأمر الذي جعلها في مأمن من الطامعين فيها من قبل حكام الإمارات المجاورة لها والتي أعلنت استقلالها إبان العصور الوسطى ، وقد حاول بعضها بسط سيطرتها عليها ، لكن هذه السيطرة سرعان مازالت بسبب شدة مراس أهلها وأنفتهم، وعدم خضوعهم لغيرهم إلى جانب كثرتهم ، ووعورة المنطقة وصعوبة مسالكها (١) .

لقد ظهر اسم عسير مصطلحاً سياسياً وجغرافياً أواخر القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر للهجرة (الثامن عشر الميلادي) ، وبخاصة عند الكتاب الغربيين ، ومنهم الإنجليز حيث كلفت الإدارة البريطانية القسم الجغرافي والمخابرات البحرية البريطانية، بإعداد بحث عن عسير يتضمن موقعها وحدودها، ومظاهر الطبيعة المختلفة فيها ، وأحوال السكان من حيث العادات وطرق العيش ، إلا أن ذلك البحث لم يوضح حدود قبيلة عسير بالنسبة لبقية القبائل الساكنة في هذا الإقليم ، لكنه أشار إلى أن اسم

---

(١) للمزيد من التفصيلات عن الإمارات التي ظهرت في اليمن والحجاز خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة ، ثم محاولة حكامها مد نفوذهم على بلاد عسير : انظر عبد الله بن عبد الكريم الجرافي ، المقتطف من تاريخ اليمن (بيروت :منشورات العصر الحديث ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م)،٩٧-١٥٢،أحمد السباعي، تاريخ مكة ، ط٤ (مكة المكرمة:مطبوعات نادي مكة الثقافي،١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ١٧٧-٣١٨.

عسير اقتصر على التلال الرئيسة وبخاصة المنطقة التى تعيش فيها قبائل بني مغيد ، وعلكم ، وبني مالك ، وربيعة ورفيدة ، وجميعهم يسكنون حول مدينة أبها بمسافات متفاوتة ، وحتى ذلك الحين لا تعرف تلك القبائل حدوداً معروفة وثابتة لعسير[1] .

وتلى هذه الدراسة، دراسات عديدة ، رسمت صورة أوضح للحدود الجغرافية للإقليم العسيرى ، فبعضها يشير إلى حدود عسير في نطاق محيط القبائل العسيرية الأصلية، وهي بنو مغيد وعلكم وبنو مالك وربيعة ورفيدة ، في حين أن هناك كتابات أخرى أضافت بلاداً أخرى إلى محيط القبائل السالفة الذكر ، وأضاف آخرون بعض القبائل المجاورة والقريبة من بلاد عسير من الشمال فتمتد إلى القنفذة (قنونا) والليث وغامد وزهران وبيشة ، ومن الجنوب إلى ظهران الجنوب ونجران وجازان . وهذا التباين نتج من الأحداث السياسية والعسكرية التي عاشتها منطقة عسير خلال القرون المتأخرة الماضية. فالإمارة في أبها امتد نفوذها إلى مناطق أبعد من المدينة نفسها مما أصبغ عليها وعلى المنطقة المحيطة بها اسم عسير، وبهذا تم تحديدها وتسميتها بهذا الاسم ليشمل المنطقة الممتدة من زهران إلى ظهران الجنوب في المناطق السروية ، ومن جازان إلى القنفذة (قنونا) في النواحي

---

(١) علي أحمد عسيري ، عسير من ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣ م ١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢ م (أبها : مطبوعات نادي أبها الأدبي ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م)، ٣٢ - ٢٦ ، غيثان بن علي بن جريس ، صفحات من تاريخ عسير (الرياض : مطابع العبيكان ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م) ، جـ ١ ، ١٥ - ١٧ .

التهامية ، بناء على المفهوم السياسي والتاريخي للمنطقة دون المفهوم الجغرافي [١].

وخلاصة القول أن عسيراً لم تكن معروفة بهذا الاسم في العصور الإسلامية الوسطى وإنما هو مصطلح حديث لم يتجاوز تاريخ ظهوره أكثر من قرنين ونصف القرن .

وفي إطار مفهوم بلاد عسير الحديثة سوف نناقش تاريخها خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة، على أنها تسمى فعلاً بلاد تهامة والسراة ، وأحياناً مخلاف جرش . فإذا نظرنا إلى حدودها الجغرافية الممتدة من شمال جازان ونجران جنوباً إلى بلاد غامد وزهران (دوس) ، والقنفذة (قنونا) شمالاً فإنه يطلق عليها مصطلح (تهامة والسراة) [٢]. وإن حصرنا حدودها على ما تم الإشارة إليه لتشمل فقط حاضرتي أبها وخميس مشيط وما حولها من القرى والمدن ، فلم تعرف في كتب التراث الإسلامي إلاّ باسم مخلاف جرش. وكي تتضح الصورة للقارئ الكريم ، فإن الحديث في الصفحات القادمة سوف يدور في محيط التحديدين الآنفي الذكر وذلك ليكون أشمل وأعم .

---

(١) عسيري ، ٣٢–٦٢ .

(٢) إذا أضفنا أحياناً مصطلحات (العسيرية) أو عسير (تهامة وسراة) ، أو العسيريين فإن جميع هذه المصطلحات مجازية ، الهدف من ذكرها تقريب صورة تاريخ عسير في العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة إلى أذهان القراء الكرام .

ثانياً : نبذة عن الوضع الجغرافي والبشري لبلاد تهامة والسراة العسيرية :

المقصود ببلاد تهامة والسراة ، الوارد ذكرها في هذا البحث ، تلك المنطقة الممتدة من قرب غامد وزهران شمالاً إلى جازان ونجران جنوباً . وهذه المنطقة لا تشمل كل بلاد تهامة والسراة المشار إليها في كتب التراث ، والتي قد تمتد شمالاً إلى المدينة المنورة أو بلاد الشام ، وجنوباً إلى حواضر اليمن الكبرى . وبين هذا وذاك ، سنركز نحن في هذا البحث على واسطة العقد أي قلب ذلك الإقليم ووسطه ، فنقول سراة الشيء في اللغة أعلاه وظهره ووسطه ، ويذكر عن بلاد السراة أنها سلسلة الجبال المتصلة المشرفة على عرفة والتي تمتد إلى حواضر اليمن [1]. ويشير بعض الجغرافيين المسلمين القدماء إلى أن تلك الجبال الممتدة من حواضر الحجاز الكبرى إلى حواضر اليمن يطلق عليها جبال السروات ، وعلى سكانها أهل السرو أو السرويون ، وربما أطلق على هذه الجبال اسم الحجاز ، لأنها تحجز بين تهامة في الغرب ونجد في الشرق [2] . ويبدو أن حدود جبال السروات أو

---

(١) للمزيد عن بلاد تهامة والسراة ، من حيث حدودها ، وخطوط الطول والعرض بها،وبعض ما قيل عن دورها الحضاري في بعض كتب التراث الإسلامية المبكرة، انظر : الهمداني ٥٨ ــ ٥٩ ، ٩٨ ــ ١٠٠، محمد بن عبد الله الإدريسي ، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . (بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) ، جـ١ ، ١٣٦ ــ ١٥٦ ، حمد الجاسر ، في سراة غامد وزهران (الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٩١هـ /١٩٧١م) ٣٥٣ ــ ٣٦٦ . غيثان بن علي بن جريس " بلاد السراة من خلال كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني " مجلة الدارة ، ع ٣ ، س ١٩ ، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م) ٧٦ ــ ١١١ .

(٢) انظر تفصيلات أكثر في مقالتي . الوهيبي ، ٥٣ – ٧٠ ، العلي ، ١-٩ ، ابن جريس " بلاد السراة ... ، ٧٦ – ١٠٠ .

الحجاز صارت مثار جدل واختلاف عند الجغرافيين المسلمين . والذي يهمنا في هذا الصدد أن بلاد السراة (العسيرية) المعنية هنا ، عرفت باسم السروات ، ومفردها سراة ، وبهذه المنطقة سروات كثيرة . وهذه السروات يسكنها العديد من القبائل والعشائر والأفخاذ ، وبالتالي كانت وما زالت تنسب كل سراة إلى القبيلة أو العشيرة التي تقطنها ، وإن كان معظم سكان تلك السروات يسكنون في المرتفعات أو السروات التي تفصل بين الأجزاء التهامية والنجدية، إلا أن بعض الأفخاذ والعشائر كانت ترحل عن مواطنها في السروات [١]، وتنزل الأغوار التهامية في الغرب أو الأجزاء النجدية في الشرق .

وبلاد السراة العسيرية كثيرة الهضاب والوهاد ، وتتفاوت في الارتفاع فقد يصل ارتفاع بعض الجبال في منطقة أبها وما حولها إلى أكثر من ثلاثة آلاف قدم ، ثم تقل إذا ما اتجهنا صوب الشمال وتتخذ شكل المدرجات ، وتميل بشدة نحو البحر في اتجاه الغرب ، بينما تنحدر تدريجياً نحو الهضاب الداخلية في اتجاه الشرق . وتعد مرتفعات عسير السروية بمثابة موزع للمياه بين تهامة في الغرب والهضاب النجدية في الشرق ، ومن أهم الأودية المنحدرة تجاه الشرق وادي تربة ، وهو من الأودية الفحول التي تأخذ مياه قسم كبير من وجه السراة الشرقي ، ويتجه نحو الشرق حتى يلتقي بوادي بيشة . ولوادي تربة العديد من الروافد منها ، ووادي العقيق الذي يسيل من

---

(١) ابن جريس ، دراسات جـ ١، ٢٥ ، للمؤلف نفسه " بلاد تهامة والسراة منذ فجر الإسلام حتى السنة الثانية عشرة للهجرة " المجلة التاريخية المصرية ، ٣٨ (١٩٩١ – ١٩٩٥ م) ، ٤١ – ٦٥ .

سراة زهران ، ووادي بواء ، الآتي من سراة بجيلة ويمر في بلاد بالحارث حتى سراة غامد وزهران (دوس) ، ثم وادي رنية بفتح الراء وسكون النون . وجنوباً يأتي وادي بيشة الذي يعد من أكبر أودية بلاد عسير المنحدرة نحو الشرق ، ويمكن أن يطلق على هذا الوادي وادي خثعم (١) ، لأن جميع البطون القاطنة فيه وعلى معظم روافده من خثعم . ومن روافد هذا الوادي وادي تبالة الذي يسيل من سراة خثعم وبلقرن وشمران ، وأودية ترج ، وترجس ، وعياء من سروات الحجر ، وهرجاب من سراة شهران ورفيدة قحطان (٢). ثم وادي تثليث (٣) إلى الجنوب من وادي قحطان ، وإذا كنا قد أطلقنا على وادي بيشة ، وادي خثعم ، فيمكننا أن نطلق على وادي تثليث ، اسم وادي قحطان ، حيث تنتشر بعض فروع قبائل قحطان على أغلب أجزاء وادي تثليث ، بالإضافة إلى أن بداية مسايل

---

(١) لقد لاحظنا ورود أسماء بعض الأودية دون ذكر أسماء العشائر والقبائل التي أقامت حولها ، مثلما حصل مع قبائل خثعم في وادي بيشة ، وفي اعتقادنا أن السبب في ذلك يعود إلى أن بعض القبائل التي سكنت حول الوديان ، ولم تسم باسمها ، هي قبائل غلب عليها طابع الترحال وعدم الاستقرار ، فلم تكن تمكث طويلاً وتلتصق بالأرض .

(٢) يقصد ببلاد الحجر المنطقة الواقعة بين سراة عسير جنوباً ، وبلقرن وخثعم وشمران شمالاً، ويستوطنها في وقتنا الحالي ، قبائل بللحمر جنوباً يليها نحو الشمال قبائل بللسمر، ثم قبائل بني شهر وبني عمرو . وللمزيد انظر: غيثان بن علي بن جريس . بلاد بني شهر وبني عمرو خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين (أبها : مطابع مازن ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م) ط ١ ، ٩ ــ ١٤ ، الطبعة الثانية (١٤٢٩ هـ/ ٢٠٠٨ م) ص ٢٢ وما بعدها .

(٣) للمزيد عن بلاد تثليث ، انظر : عمر بن غرامة العمري ، منطقة تثليث وما حولها من ٦٥٠ – ١٤١٤ هـ (الرياض : دار الشبل للنشر والتوزيع والطباعة ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م) ، ٩ – ٥٣ .

هذا الوادي من أعالي سراة قحطان [١] ، ومن أكبر روافده وادي العرين الذي يستمد مياهه من سراة عبيدة عند المنطقة المسماه بـ (الفيض) حول ظهران الجنوب .

أما الأودية الغورية المتجهة من مرتفعات السروات العسيرية تجاه الغرب ، فمنها إلى الشمال نحو الجنوب ، أودية تأخذ مياهها من سروات غامد وزهران (دوس) وخثعم وشمران وبلقرن ، مثل : وادي الشواق ثم دوقه ، وقرماء ، وناوان ، والأحسبة ، وجميعها تصب على مقربة من القنفذة . ووادي قنونا الذي يصب من غرب سراة بلاد الحجر حتى البحر عند القنفذة (قنونا) ، ثم وادي حلي الذي يعتبر أعظم الأودية التي سبق ذكرها ، وله رافدان عظيمان هما : واديا بقره والحمض اللذان يأتيان من سراة الحجر ، وبخاصة بلاد بني شهر ، ثم وادي عتود الذي يسيل من سراة عسير ، حتى يصب في البحر عند بلدة الشقيق ، ثم يليه إلى الجنوب وادي بيض ثم وادي بيش اللذان تأتي مياههما من سراة قحطان[٢].

---

(١) من كبرى عشائر قبيلة قحطان في وقتنا الحاضر ، وبخاصة في الأجزاء السروية ، وادعة ، وسنحان ، وبنو بشر ، وعبيدة ، ورفيدة ، والجارمة وخطاب .

(٢) وللمزيد عن أهم الأودية الواقعة بين جازان ونجران جنوباً وبين مكة المكرمة والطائف شمالاً ، انظر: عبد الرحمن صادق الشريف ، جغرافية المملكة العربية السعودية ، إقليم جنوب غرب المملكة (الرياض : دار المريخ ، ١٤٠٤هـ /١٩٨٤م) ، جـ٢ ، ٣٣ وما بعدها ؛ عاتق بن غيث البلادي . بين مكة واليمن (رحلات ومشاهدات) (مكة المكرمة: دار مكة ، ١٤٠٤هـ /١٩٨٤م) ، ١٣ وما بعدها ، وللمؤلف نفسه. بين مكة وحضرموت (رحلات ومشاهدات) (مكة المكرمة : دار مكة، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ، ٩ وما بعدها .

ثالثاً : بلاد عسير أثناء مرحلة الدعوة المكية :

بُعث الرسول ﷺ في مكة المكرمة يدعو الناس إلى عبادة الله وترك عبادة الأوثان ، فتصدت له قبيلة قريش ، وحاربته ، ووصفه القرشيون بأسوأ الصفات ، ثم سعوا إلى تحريض باقي القبائل في شبه الجزيرة عليه وعلى ما جاء به وشجعوهم على المضي في عبادة الأصنام في كل مكان ، ولكن بنصر الله وتوفيقه ، انتشرت رسالة الإسلام وتزايدت أعداد المسلمين حول الرسول ﷺ ، حتى صارت شبه الجزيرة العربية تدين بكلمة التوحيد . ولم يكن سكان عسير (تهامة وسراة) في بداية الدعوة بمعزل عن سير الأحداث في مكة المكرمة ، وإنما كانوا على صلة سياسية وحضارية بأهل مكة والطائف ومن جاورهم [1] . والسؤال الذي يواجهنا في هذا الصدد هو

---

(١) كان أهل تهامة والسراة على علاقات (تجارية ، واجتماعية ، وسياسية) مع الحجازيين . فالقرآن الكريم (في سورة الإيلاف) وكثير من كتب التراث الإسلامي تشير إلى الرحلة الشتوية التجارية التي كان يقوم بها أهل مكة المكرمة ، عبر بلاد تهامة والسراة ، حتى حواضر اليمن الكبرى . ورحلة تجارية متكررة كل عام ، لا بد أن يحدث الاحتكاك الحضاري بين روادها الذين هم من قريش ، وبين أهل الديار التي يمرون عليها من بلاد تهامة والسراة . والأخذ والعطاء لا يكون مقصوراً على الأعمال التجارية فحسب ، وإنما يمتد إلى أمور أخرى عدة ، كالتعاون في توفير الأمن للتجار أثناء عبورهم الطريق التجارية، أو ورودهم بعض الأسواق أو المراكز الحضارية الكبرى للبيع والشراء . ومن المتوقع أن تمتد العلاقات إلى الزواج والمصاهرة ، واقتباس بعض العادات الاجتماعية المتعلقة بحفلات الزواج والختان ، أو عادات الزينة واللباس ، أو الطعام والشراب ، أو بناء الدور وما شابهها. ومن يتجول الآن في بلاد الحجاز ، أو بلاد تهامة والسراة العسيرية المعنية في هذا البحث ، أو بعض أرياف ومدن اليمن يجد هناك الكثير من التشابه في نمط الألبسة ، وطريقة عمل بعض الأطعمة ، أو بناء ونقش وزخرفة المنازل . ومثل هذا التشابه لا يمكن حدوثه من فراغ وإنما ورثه الأبناء والآباء عن الأجداد ، كما أنه نتيجة للاختلاط والانصهار البشري الذي مرت به هذه الديار منذ أزمنة بعيدة .

: ماذا كان موقف أهل عسير أثناء المرحلة المكية ؟ . الواقع أن موقفهم كان سلبياً من الدعوة الإسلامية ، لأن قبيلة قريش في نظرهم كانت المثل الذي يُقتدى به ، ولذا انساقوا وراء قريش في عدائها للرسول ﷺ في مكة المكرمة . ولم نستطع العثور على دليل يشير إلى أن أهل عسير وقفوا موقفاً إيجابياً من الرسول ﷺ ودعوته في المرحلة المكية ، اللهم إلا بعض حالات فردية تمثلت في بعض الشخصيات العسيرية التي تجاوزت الطوق الذي ضربته قريش حول الرسول ﷺ ومن آمن معه في مكة المكرمة . ومن تلك الشخصيات ضماد الأزدي ، من أزد شنؤة ، بسراة عسير حول مدينة أبها، جاء إلى مكة المكرمة وكان يعالج من مرض الجن ، فاستقبله طغاة قريش ، وحذروه من مقابلة الرسول[1]، ﷺ ووصفوه بأنه ساحر مجنون ، فلم يسمع ضماد لما قالوا ، وقال : " **لو أني أتيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي** " ثم لقيه فقال له : " **يا محمد أني أرقي من هذا الريح فهل لك ؟** " فقال رسول الله ﷺ : " **إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، ومن يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمد عبده ورسوله** " فقال ضماد " **أعد عليّ كلماتك هؤلاء** " ، فأعادهن عليه رسول الله ثلاث مرات ، فقال : " **لقد سمعت قول الكهنة ، وقول**

(١) لم تكن سياسة قريش في محاربة الرسول (ﷺ) وما جاء به من دعوة ، مقصورة على تحذير الناس من مقابلة الرسول بشكل فردي ، كما فعلوا مع ضماد ، وإنما كان منهجهم إلقاء الخطب على رؤوس القبائل في الأسواق ، وعلى أبواب السكك الداخلة إلى مكة ، وكذلك أيام الحج ، وفي أماكن أخرى عديدة ، يحرصون على التشكيك فيما جاء به الرسول محمد (ﷺ) ويدّعون أنه ضرب من الأساطير والخرافات .

السحرة ، وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، هات يدك أبايعك على الإسلام " فبايعه (١).

وإذا كان ضماد من بوادر نسمات الخير التي أتت من بلاد سروات عسير ، إلا أن السواد الأعظم من سكان تلك البلاد بقوا على وثنيتهم حتى بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، بل وبعد حدوث المعارك الكبرى في الإسلام كبدر ، وأحد ، والأحزاب ، ثم فتح مكة المكرمة في السنة الثامنة للهجرة .

رابعاً : بلاد عسير أثناء مرحلة الدعوة المدنية :

بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة ، واتخاذها عاصمة للدولة الإسلامية ، ثم تحول المسلمين من دعاة إلى جند يقاتلون المشركين وأعوانهم . ظل أهل عسير يرقبون تطورات الوضع عند القرشيين ، ويهوون هواهم ،

---

(١) جمال الدين بن الجوزي . صفة الصفوة ، تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس قلعجي (حلب : دار الوعي ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م) ، جـ ١ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ . ولم يكن ضماد الأزدي هو الوحيد الذي قدم من جنوب الجزيرة على الرسول (ﷺ) وأعلن إسلامه في هذه الفترة المبكرة ، بل كان هناك شخصيات أخرى فعلت مثلما فعل ضماد أمثال :- أبو موسى الأشعري من بلاد تهامة ، وكذلك الطفيل بن عمرو الدوسي من بلاد زهران في منطقة الباحة وغيرها ممن حفظت كتب السير والتراجم والطبقات أسماءهم . أبو محمد عبد الملك بن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين (بيروت : دار القلم ، د . ت) ، جـ٢ ، ٢١ وما بعدها . للمزيد انظر ، ابن الجوزي ، جـ١ ، ٦٠٠ – ٦٠٤ ، عز الدين علي بن الأثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، د . ت) جـ ٣ ، ٥٤ – ٥٥ .

ويتعاطفون معهم ، بحكم الجوار والموقع ما بين مكة والطائف وبين أهل تلك البلاد الذين يجاورونهم جنوباً . ونظراً للأهمية التي تتمتع بها أسواق مكة والطائف من حيث تسويق السلع وترويجها ، وتوفير ما يحتاج الناس لشرائه من الحاجات ، ونظراً لمعتقداتهم الوثنية التي تتفق مع ما كان عليه المشركون في مكة وما حولها ، كل هذا يجعلنا ندرك ما كان هناك من تجاوب بين أهل مكة والطائف وبين أهل عسير (تهامة وسراة) . ولا تذكر المصادر دوراً إيجابياً ملموساً لأهل هذه البلاد ، وبخاصة قبل فتح مكة المكرمة في السنة الثامنة للهجرة وإنما أشارت إلى بعض السرايا التي أرسلها الرسول ﷺ إلى بعض مواقع الجنوب من مكة والطائف نحو منطقة عسير [(١)].

وبدخول الرسول ﷺ الطائف في السنة الثامنة للهجرة علت كلمة الإسلام ، الأمر الذي أدى إلى انهيار الشرك في بلاد عسير وغيرها من مناطق شبه الجزيرة العربية . وبعد معركة حنين وحصار الطائف ، قدم وفد من ثقيف على الرسول ﷺ في المدينة المنورة بعد فتح مكة المكرمة ، وتبعته وفود

---

(١) تذكر بعض المصادر أن الرسول (ﷺ) أرسل بعض الدعاة وأحياناً سرايا في رهط من الصحابة إلى كل من تربة ، وبلاد خثعم ، وبيشة ، ودوس وما حولها كي يتصدوا لبعض المشركين هناك ، فيتزلون بهم العقوبات نتيجة كفرهم ومجاهرتهم بالعداء للإسلام والمسلمين . لمزيد من التفصيلات انظر ، محمد بن عمر الواقدي . كتاب المغازي ، تحقيق مارسدن جونس (بيروت : عالم الكتب ، د . ت) ، جـ ٢ ، ٧٢٢ ، خليفة بن خياط . تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمري (الرياض : طيبة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م) ، ٧٨ ، ابن هشام ، السيرة ، جـ ٢ ، ٢١ – ٢٥ ، علي بن الحسين المسعودي . التنبيه والإشراف (بيروت : دار مكتبة الهلال ، ١٩٨١ م) ، ٢٤٣ ، شمس الدين محمد بن القيم . زاد المعاد في هدي خير العباد ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م) ، ج ٣ ، ٦٢٤ – ٦٢٨ .

أخرى من حواضر منطقة عسير وعموم بلاد اليمن [١]. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو : هل دخل سكان عسير في الإسلام زرافات أم وحدانا ؟ وهل قام ممن دخل في الإسلام من أهل هذه البلاد بنشر الإسلام بينهم ؟ وهل بقي بعضهم على وثنيته تأخذه العزة بالإثم ؟

الواقع أن العسيريين لم يدخلوا في الإسلام بشكل جماعي، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من القبائل التي دخلت الإسلام بعد فتح مكة المكرمة . ويمكننا القول إن دخولهم الإسلام كان ما بين السنتين السابعة والعاشرة للهجرة. فبعد فتح مكة المكرمة ثم بعد معركة حنين ومحاصرة أهل الطائف، نجد بعض سكان منطقة عسير (تهاميين وسرويين) [٢] كانوا من أوائل من دخل في الإسلام، الأمر الذي أدى إلى استعانة الرسول ﷺ بهم وبغيرهم من الداخلين في الإسلام على محاربة من بقي على عقائد الوثنية في أوطانهم [٣].

---

(١) من الوفود التي وفدت على الرسول ﷺ من بلاد تهامة والسراة وفد الأزد ، وفد بجيلة ، وفد بارق ، وفد خثعم ، وفد ثمالة ، وفد غامد ، وفد دوس ، وغيرها كثير . للمزيد من التفصيلات ، انظر:محمد بن سعد . الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر ، ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م) ، جـ١، ٣٢١ ــ ٣٥٩ .

(٢) عندما نقول : تهامة وسراة ، أو (التهاميون والسرويون) فهذا يعني أن تضاريس منطقة عسير تشغل أجزاء جبلية مرتفعة ، وكذلك سهول ومنخفضات تهامية ، ويقطن في جميع هذه النواحي عشائر وقبائل مختلفة يعود تاريخ بعضها إلى عصور ما قبل الإسلام .

(٣) هناك روايات تاريخية تذكر أن الطفيل بن عمرو الدوسي ، وكذلك جرير بن عبد الله البجلي وغيرهما كانا على رأس بعض السرايا التي أرسلها الرسول (ﷺ) إلى سكان السراة من الطائف حتى الباحة ، وبيشة وأجزاء من منطقة عسير ، وذلك بهدف نشر الإسلام بين أولئك الأقوام ، وهدم ما كان في بلادهم من أوثان وأصنام يعبدونها من دون الله ، للمزيد انظر ، الواقدي ، جـ ٣ ، ٩٢٣ ، ابن سعد ، جـ٢ ، ١٥٧ ، ابن هشام ، جـ ٢ ، ٢١ – ٢٥ ، محمد بن إسماعيل البخاري ، صحيح البخاري (بيروت : دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع ، د . ت) مج ٣ ، جـ ٥ ، ١٢٣ ، ابن الجوزي ، جـ ١ ، ٦٠٣ .

ولم يكتف الرسول ﷺ بإرسال قادة من أهل السراة الممتدة من الطائف حتى أبها لمحاربة من بقي على الوثنية منهم، بل غيّر وبدّل ، فأرسل قادة من صحابته ليحاربوا المشركين في بلاد بيشة وعسير وما حولها . وتذكر بعض المصادر أن سرية قطبة بن عامر بن حديدة التي أرسلها الرسول ﷺ إلى بلاد خثعم وأجزاء من بلاد بيشة في شهر صفر من السنة التاسعة للهجرة كانت حوالي عشرين رجلاً ، ذهبوا إلى محاربة بعض المشركين ، وعادوا ظافرين (١).

أما معظم وفود بلاد عسير على الرسول ﷺ في المدينة فكانت في العامين التاسع والعاشر الهجريين ، وخاصة في العام التاسع الذي كثرت فيه الوفود على رسول الله ﷺ من شبه الجزيرة ، لدرجة أنه سمي عند المؤرخين بعام الوفود . ويبدو أن بعض الوفود قدمت من بلاد السراة قبل هذا التاريخ أمثال الدوسيين بزعامة الطفيل بن عمرو الدوسي وغيرهم فكانوا ندرة ، ولكن بعد فتح مكة المكرمة ، انفتح الباب الذي كان حاجزاً بين أهل عسير (تهامة وسراة) ومعظم بلاد اليمن وبين الرسول ﷺ في المدينة ، وبالتالي تفد الوفود من قبائل متباينة في بلاد تهامة والسراة العسيرية ، وفي أعداد متفاوتة

---

(١) ابن القيم ، ج ٣ ، ٥١٤ ، ابن سعد ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .

لكي تقدم إسلامها للرسول ﷺ ثم تعود إلى أوطانها لتنشر الإسلام بين أقوامها ، وتحارب أهل الشرك أو من بقي مصراً على عبادة الأوثان .

وإلى جانب الذين سبق ذكرهم من الشخصيات أو الوفود التي وفدت على الرسول ﷺ وقدّمت إسلامها ، هناك أيضاً وفود أخرى قدمت من منطقة عسير في العامين التاسع والعاشر للهجرة ، ومن تلك ، وفد بارق ، ووفد خثعم ووفد زُبيد من بلاد تثليث لسراة جنب (قحطان) بزعامة عمرو بن معدي كرب الزُبيدي ، ثم وفد الأزد بسراة عنز (عسير) تحت زعامة صرد بن عبد الله الأزدي [1].

ومن الملاحظ أن الوفود التي قدمت على الرسول ﷺ من بلاد عسير ، أو من أي مكان في شبه الجزيرة العربية ، كانت دليلاً على انهيار الشرك ، وبالتالي علامة على انتشار الإسلام في البلاد والأقاليم التي وفدت منها . ويتضح من بعض كتب الرسول ﷺ أن البعض من قبائل عسير فعلوا ما فعل الحارث بن عبد شمس الخثعمي ، الذي خرج إلى المدينة المنورة بعد هدم جرير لصنم

---

(١) ابن سعد ، جـ١، ٣٢١ـ ٣٥٩ ، ابن هشام،جـ٤ ، ٢٣٠ ـ ٢٣٤ ، ابن القيم، جـ٣، ٦٢٠ ـ ٦٢١ ، محمد بن جرير الطبري . تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت:دار سويدان،١٣٨٢هـ /١٩٦٢م)، جـ٣ ، ١٣٠ ـ ١٣١ ، ١٣٤ ـ ١٣٦ ، محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (بيروت:دار النفائس ، ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م)، ٢٤١ ، ٢٩٠ ـ ٢٩١ .

ذي الخلصة [١]، فأسلم وأخذ الأمان لأصحابه من رسول الله [٢]. ويتضح أن بعض العشائر الخثعمية ، خلاف الحارث بن عبد شمس ، قدمت على الرسول ﷺ في رجال من خثعم ، فقالوا ((**آمنا بالله ورسوله ، وما جاء من عند الله ، فاكتب لنا كتاباً نتبع ما فيه ، فكتب لهم كتاباً شهد فيه جرير بن عبد الله ومن حضر**)) [٣].

كذلك قدم من بلاد بيشة إلى الرسول ﷺ بعد فتح مكة المكرمة مطرف بن الكاهن الباهلي ، الذي أعلن إسلامه ، وطلب الأمان من الرسول ﷺ فأمَّنَهُ وأعطاه الرسول كتاباً فيه فرائض الصدقات قال فيه : " **هذا كتاب من محمد رسول الله لمطرف بن الكاهن ، ولمن سكن بيشة من باهله ، أن من أحيا أرضاً مواتاً بيضاء فيها منافع الأنعام ومراح فهي له وعليهم في كل ثلاثين من البقر فارض ، وفي كل أربعين من الغنم شاة ، وفي كل خمسين من الإبل ثاغية مسنة ، وليس للمصدق أن يصدقها إلا**

---

(١) صنم ذي الخلصة كان لدوس وبجيلة ومعظم قبائل أزد السراة (رجال الحجر ، بالقرن ، غامد وزهران) ، وكان يعرف بالكعبة اليمانية ، ويحج إليه أعداد كثيرة من الناس . ابن هشام ، جـ ١ ، ٨٨ ابن الجوزي ، جـ ١ ، ص ٧٤١ ، البخاري ، مج ٣ ، جـ ٥ ، ١١١ – ١١٢ ، مج ٤ ، جـ ٨ ، ١٠٠ . ويذكر أن صنم ذي الخلصة أعيد بناؤه بعد القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، وربما من قبل ذلك ، وبقي على حاله حتى زمن الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود ، فيذكر ابن بشر في حوادث (١٢٣٠ هـ) أن رجال الإمام عبد العزيز حاربوا الترك في بلاد بيشة وخثعم ودوس وغامد حتى وصلوا صنم ذي الخلصة فهدموه وأحرقوه . عثمان بن بشر . عنوان المجد في تاريخ نجد (الرياض : مكتبة الرياض الحديثة ، د . ت) جـ ١ ، ١٨١ – ١٨٢ .

(٢) حميد الله ، ٢٩١ .

(٣) حميد الله ، ٢٩١ ، أيضاً وردت هذه المعلومات في جزء من طبقات ابن سعد ، تم طبعه في بلدة أكبر أباد بالهند ، عام (١٣٠٨ هـ) .

في مراعيها ، وهم آمنون بأمان الله " [١]. وكتب الرسول ﷺ كتاباً آخر لنهشل بن مالك من باهلة بيشة قال فيه : " باسم الله هذا كتاب من محمد رسول الله لنهشل بن مالك ومن معه من بني وائل ، لمن أسلم ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، وأطاع الله ورسوله ، وأعطى من المغنم خمس الله ، وسهم النبي ، وأشهد على إسلامه ، وفارق المشركين ، فإنه آمن بأمان الله ، وبري إليه محمد من الظلم كله ، وأن لهم أن لا يُعشروا ، وعاملهم من أنفسهم..." [٢] وفي كتاب آخر لقبائل خثعم ببلاد بيشة قال فيه : " هذا كتاب من محمد رسول الله لخثعم من حاضر بيشة وباديتها ، أن كل دم أصبتموه في الجاهلية فهو عنكم موضوع ، ومن أسلم منكم طوعاً أو كرهاً في يده حرث من خيار أو عرار تسقيه السماء .... فله نشره وأكله ، وعليهم في كل سيح العشر ، وكل غرب نصف العشر " [٣] وكتاب آخر لأهل بارق قال فيه الرسول ﷺ : " هذا كتاب من محمد رسول الله لبارق ، لا تجز ثمارهم ، ولا ترعى بلادهم في مربع ولا مصيف إلا بمسألة من بارق أو من مر بهم من المسلمين في عرك أو جدب فله ضيافة ثلاثة أيام ، وإذا أينعت ثمارهم فلابن السبيل اللقاط يوسع بطنه من غير أن يقتثم..." [٤].

كما وفد على الرسول ﷺ في السنة العاشرة من الهجرة ، وفد جرش ، وعلى رأسهم صرد بن عبد الله الأزدي في بضعة عشر رجلاً ،

---

(١) ابن سعد ، ط . أكبر آباد بالهند ، ٣٨-٣٩ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه ، ٤١ ، حميد الله ، ٢٩١ .

(٤) ابن سعد ، ج ١ ، ٣٥٢ ، حميد الله ، ٢٤١ ، ابن جريس ، بلاد بني شهر ، ٤٤ .

فأسلم وأسلم رجال الوفد، وأمّره الرسول ﷺ بعد إسلامه على قومه، وأمره بالجهاد بمن معه من المسلمين ضد من جاورهم في جرش من المشركين[١].

وتشير كتب التاريخ والسير إلى أن بلدة جرش كانت مدينة مسورة حصينة ، فعندما سمع أهل جرش بإسلام صرد ، وبما تم بينه وبين الرسول الكريم ﷺ سعوا إلى زيادة تحصين مدينتهم ، وانضمت إليهم بعض قبائل خثعم المجاورين لهم ، لمقاومة صرد بن عبد الله الأزدي الذي عاد مسرعاً من المدينة المنورة مصطحباً معه من انضم إلى الإسلام من قومه ، وهاجم بهم مدينة جرش ، فوجدها في غاية المنعة والتحصين ، فحاصرها شهراً كاملاً ، ولما أعياه فتحها رأى أن اللجوء إلى الحيلة أجدى من الحصار، فقوض خيامه كأنه راحل عنها وهو عازم على الخدعة ، وما أن شاهده المحاصرون راحلاً حتى فتحوا باب مدينتهم وخرجوا في أثره ليستأصلوا شأفته فتظاهر أمامهم بالفرار ، وعندما أخذوا في مطاردته عطف عليهم في التفافة بارعة ففتك بهم فتكاً ذريعاً[٢]، وتم له فتحها وبعد الفتح توجه وفد أهلها إلى الرسول ﷺ لإعلان إسلامهم أمامه ، فرحب بهم ، وقال عليه السلام : " **مرحباً بكم أحسن الناس وجوهاً ، وأصدقه لقاء ، وأطيبه كلاماً ، وأعظمه أمانة ، أنتم مني وأنا منكم** " ثم جعل شعارهم مبروراً[٣]، وأمرهم بالعودة إلى

---

(١) ابن الأثير ، جـ ٣ ، ١٧ .

(٢) ابن هشام ، ج ٤ ، ٢٣٤ ، ابن سعد ، ج ١ ، ٣٣٧ – ٣٣٨ ، الطبري ، ج ٣ ، ١٣٠–١٣١ ، ابن القيم ، جـ ٣، ٦٢٠–٦٢١ .

(٣) ابن سعد ، ج ١ ، ٣٣٨ .

ديارهم ، بعد أن حمى لهم حمى حول بلدتهم . ويورد محمد حميد الله ذلك الكتاب الذي كتبه الرسول ﷺ في حمى جرش وينص على : " **بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد النبي لأهل جرش : أن لهم حماهم الذي أسلموا عليه ، فمن رعاه بغير بساط أهله فماله سحت ، وأنّ زهير بن الحماطة فإن ابنه الذي كان في خثعم ، فأمسكوه فإنه عليهم ضامن ، وشهد عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان** " [(١)].

وأهمية هذا الكتاب أن الرسول ﷺ أقرّ حمى أهل جرش الذي يحيط بمدينتهم ، وذلك بمنحهم حق الرعي والتملك في بلادهم ، ووضع القوانين الشرعية التي تنظم العلاقات بين الأفراد في شؤون حياتهم المختلفة في ظل أحكام الشريعة الإسلامية [(٢)] .

وفي رواية للبلاذري ، نقلاً عن الزهري ، تذكر أن أهل جرش أسلموا من غير قتال ، فأمّرهم رسول الله ﷺ على ما أسلموا عليه ، وجعل

---

(١) حميد الله ، ٢٨٩-٢٩٠.

(٢) ويتضح أن الرسول ﷺ حفظ لأهل جرش حماهم بقوله : " فمن رعاه بغير بساط أهله فماله سحت " ، أي فمن رعى حمى أهل جرش ، فلا ضامن على من أهلكه . وقوله عليه السلام : " وأن زهير بن الحماطة ... " والمذكور أن ابناً لزهير ارتكب في خثعم أمراً أوجب الضمان ، فضمنه زهير لهم ، فأمر الرسول ﷺ بامساك زهير أخذاً بضمانه لجريرة ابنه . حميد الله ، ٢٨٩-٢٩٠ . وعن الحمى وأهميته منذ بداية عصر الإسلام ، انظر : صالح أحمد العلي . الحمى في القرن الأول الهجري ، مجلة العرب ، ج ٧ (١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩م) ، ٥٧٧ - ٥٩٥ .

على كل حالم من أهل الكتاب ديناراً ، واشترط عليهم ضيافة المسلمين ، وأرسل أبا سفيان بن حرب والياً عليهم (١).

وهذه الرواية التي ذكرها البلاذري لا تتفق مع الرواية التي ذكرتها كتب التاريخ والسير الأخرى ، فرواية البلاذري تنفي أن أهل جرش اعتنقوا الإسلام بالسيف ، في حين أن رواية ابن هشام ، وابن سعد ، والطبري ، وابن قيّم الجوزية ، وغيرهم تؤكد على حرب صرد بن عبد الله الأزدي لهم حتى دخلوا في الإسلام (٢). ويمكننا القول إن ما رواه البلاذري يتفق إلى حد ما مع ما جاء عند أصحاب المصادر الأخرى ، وخاصة أن الرسول ﷺ لم يرسل جيشاً معيناً من المدينة المنورة لمحاربة أهل جرش ، وإنما تلك الحرب التي دار رحاها في بلاد جرش وما حولها ، هي حرب جهاد قادها صرد بن عبد الله لكسر شوكة أعداء الدين الإسلامي في المنطقة .

أما إرسال أبي سفيان بن حرب إلى إمارة جرش ، بل إلى عموم سروات عسير ، فقد جاءت بعد تولية الرسول ﷺ لصرد بن عبد الله على أهل جرش وما حولها، مع العلم أن إمارة أبو سفيان كانت مقصورة على جبي الصدقات ، بدليل ما ذكر الطبري ، أن أبا سفيان كان والياً على الصدقات في تلك الأنحاء الممتدة من مخلاف جرش إلى نجران جنوباً ، وإلى زبيد ورمع غرباً . أما الإمارة العامة على تلك الأجزاء فكانت

---

(١) أحمد بن يحيى البلاذري . فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م) ، ٧٠ .

(٢) ابن هشام ، ج ٤ ، ٢٣٣ – ٢٣٤ ، ابن سعد ، ج ١ ، ٣٣٧ – ٣٣٨ ، الطبري ، ج ٣ ، ١٣٠ – ١٣١ ، ابن القيم ، ج ٣ ، ٦٢٠ – ٦٢١ .

لخالد بن سعيد بن العاص الذي كُلف بإمارة تلك النواحي في نهاية الحج للسنة العاشرة من الهجرة [١].

وتذكر بعض كتب السنة نقلاً عن ابن عباس أن الرسول ﷺ كتب إلى أهل جرش ينهاهم أن يخلطوا الزبيب بالتمر [٢]، وهذا الخبر مفاده أن الرسول ﷺ كان على صلة تامة بأهل جرش (عسير) سروية وتهامية ، وبمعرفة أخبارهم ، الأمر الذي أدى إلى نهي الجرشيين عمّا لا يتفق مع الشريعة ودعوتهم إلى الامتناع عن القيام بما يُخالفها .

وبهذا نرى أن الرسول ﷺ لم يكتف فقط باستقبال الوفود في المدينة المنورة ، وإنما عمل ما في وسعه لتوطيد الإسلام بين أقوام تلك الوفود ، فأكرم وفادة الوفود القادمة عليه ، ثم علّمهم المبادئ الأساسية في الإسلام ، وبعدها أذن لهم بالعودة إلى أوطانهم ، فعادوا إلى أقوامهم وكلهم إصرار على نشر الإسلام فيما بينهم .

وأحياناً كان يكتب الرسول ﷺ كتباً لبعض الوفود يبين لهم فيها بعض التعاليم الدينية ، وتارة أخرى كان يرسل رسائل إلى بعض القبائل والعشائر ، يذكر لهم فيها ما يتوافق مع منهج الإسلام ، سواء في العقيدة أو الأحكام ، أو الأنظمة الاجتماعية ، أو غيرها ، بل ويحثهم على محاربة

---

(١) الطبري ، ج ٣ ، ٢٢٨، ٣١٨ . وإمارة صرد بن عبد الله ربما كانت مقصورة على مخلاف جرش ، أما أبو سفيان بن حرب فكان عمله فقط جباية الزكاة من مخلاف جرش وما جاورها من المخاليف الأخرى ، كذلك سعيد بن العاص كانت لـه الولاية العامة على جميع النواحي الممتدة من نجران جنوباً إلى مدينة جرش وبيشة شمالاً .

(٢) أحمد بن حنبل ، مسند الامام أحمد بن حنبل . (بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٣٩٨ هـ)، ج ١ ، ٢٢٤

الفتن والضلالات والنصرة على أهل الشرك وضمان الأمن والبقاء في أوطانهم .

وقد ظهر قبيل وفاة الرسول ﷺ، في أنحاء من شبه الجزيرة العربية بعض الكذابين المدعين للنبوة ، أمثال عبهلة ، الملقب بـ (الأسود العنسي) في بلاد اليمن وما حولها [١] فاتخذ من صنعاء نقطة انطلاق نحو الشمال حتى سيطر على نجران وأجزاء عديدة من بلاد جنب (قحطان) وجرش وبيشة وما حولها ، بل لقد سعى إلى طرد عمال الرسول ﷺ في تلك الأجزاء[٢]. وجاء النبأ، بأفعال الأسود العنسي، إلى الرسول ، فقام عليه السلام، بمراسلة العديد من قبائل وشيوخ أهل اليمن، وتهامة والسراة وحثهم على التمسك بدين الإسلام، والثبات في تصديهم للأسود العنسي، وحذرهم من الارتداد عن دين الله ، بل أرسل جرير بن عبد الله البجلي مع بعض الرجال من أزد السراة [٣] ليتصدوا للمرتدين أو المؤيدين للأسود العنسي في

---

(١) الأسود العنسي رجل من عنس أحد قبائل قحطان ، كان كاهناً تنبأ قبيل وفاة الرسول (ﷺ) ، وتابعه على أمره أقوام عديدة من عرب اليمن وبعض أجزاء بلاد تهامة والسراة ، فخرب ودمر ، وعاث في الأرض فساداً ، حتى هيأ الله له بعض الموالي والعرب ببلاد اليمن فتآمروا على قتله ونجحوا في ذلك . للمزيد من التفصيلات عن حركته وفجوره ، انظر : الطبري ، تاريخ ، جـ٣ ، ص٢٣٠ وما بعدها .

(٢) كان من عمال الرسول ﷺ في بلاد اليمن وتهامة والسراة ، عمرو بن حزم على نجران ، وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران ورمع وزبيد ، وكانت إمارته تمتد شمالاً على ديار قحطان وبلاد جرش حتى بيشة ، وكان الطاهر بن أبي هاله على عك والأشعريين في بعض النواحي التهامية .

(٣) أزد السراة : المقصود بها في كتب التراث الإسلامي أي البلاد الممتدة من نجران جنوباً إلى بلاد غامد وزهران شمالاً . انظر ، ابن جريس ، دراسات ، جـ ١ ، ص ٦٤ .

أرض السروات [١] وبعد خروج جرير بن عبد الله من المدينة متجهاً إلى بلاد عسير السروية أتى نبأ وفاة الرسول ﷺ فعاد جرير إلى المدينة دون أن يواصل مهمته ، وربما عاد ليقف على أحوال المسلمين بعد وفاة الرسول الكريم ﷺ، وفي ضوء ذلك الموقف يستطيع أن يتصرف مع بقية صحابة الرسول ﷺ ، ويحتمل أن يكون موت الرسول ﷺ، وهول تلك الصدمة جعلت جرير بن عبد الله لا يواصل هو وأصحابه ما كُلفوا به من قبل الرسول ﷺ فلم يستطيعوا السير قدماً ، وقرروا الرجوع إلى مدينة الرسول الكريم ﷺ.

خامسا : بلاد عسير منذ عصر الخلافة الراشدة حتى أواخر العصر الإسلامي الوسيط :

عندما تولى الخليفة الراشد أبا بكر الصديق (رضي الله عنة) الخلافة ، عزم على مواصلة قتال المرتدين في أنحاء الجزيرة العربية ، ومنطقة عسير من المناطق التي ظهر بها بعض المرتدين المؤيدين لثورة الأسود العنسي ، وكان حميضة بن النعمان بن حميضة البارقي ،ومعاوية بن قيس الجنبي المذحجي وعمرو بن معد كرب الزبيدي [٢] على رأس قيادة المرتدين العسيريين المؤيدين لسياسة العنسي التوسعيه في اليمن وعموم السروات الممتدة من نجران إلى أبها

---

(١) انظر : الطبري ، تاريخ ، جـ٣ ، ٢٣٢ ، ٣٢٢ ، عبد الرحمن بن خلدون . تاريخ بن خلدون ، تحقيق خليل شحادة وآخرين (بيروت : دار الفكر ، ١٤٠١هـ /١٩٨١م)، جـ٢ ، ٤٩٣ .

(٢) للمزيد من المعلومات عن هذه الشخصيات، وبخاصة عمرو بن معد كرب الزبيدي الذي كان نائباً للأسود على المنطقة الممتدة من نجران إلى بيشة ورنية وتربة ،انظر ،الطبري جـ ٣ ، ٢٢٨ وما بعدها ،ابن سعد، جـ١ ،٣٢٨، محمد بن عبد الله بن قتيبة .الشعر و الشعراء (بيروت :دار إحياء العلوم ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م)،٢٤٠-٢٤٢، أحمد بن عبد ربه .العقد الفريد ،تحقيق مفيد محمد قميحة وآخرين (بيروت :دار الكتب العلمية ،١٤٠٤ هـ /١٩٨٣م)جـ١ ، ٢٤١، ٣١٨-٣١٩.

وبيشة والطائف [١] . لكن الخليفة الراشد الصديق (رضي الله عنه) اتخذ خطوت عمليه ،فأعاد جرير بن عبد الله البجلي إلى سروات الباحة وعسير من أجل الصمود مع المسلمين ضد المرتدين ،كما أرسل إلى أمراء الطائف و مكة كي يرسلوا من قبلهم من يساعد جرير البجلي (رضي الله عنه) والعسيريين المسلمين هناك . أخيراً أرسل جيشاً عاماً من المدينة تحت قيادة المهاجر بن أبي أمية (رضي الله عنه) فسار عبر بلاد الطائف والباحة حتى التقى بالقوى المسلمة في مرتفعات عسير،ثم ساروا جميعا إلى بلاد قحطان ونجران وصعدة ، ونجحوا في هزيمة المرتدين في هذه البلاد ، وأعادتهم تحت مظلمة الخلافة الراشدة في المدينة [٢] .

وبعد القضاء على المرتدين في بلاد عسير وما حولها،بدأ الكثير من العسيريين يشاركون مع غيرهم في الذهاب إلى المدينة المنورة كي ينخرطوا في منظومة جيوش الفتوحات الإسلامية التي خرجت إلى بلاد الشام ومصر وإفريقيا والأندلس والعراق وفارس ، كما عمل البعض منهم على الاستقرار ونشر الإسلام في تلك البقاع الإسلامية الجديدة ، ثم المساهمة في الكثير من الأنشطة السياسية والحضارية المختلفة [٣] .

---

(١) الطبري ،جـ٢ ، ٢٣٠-٢٣٢، ٣١٨ وما بعدها.

(٢) الطبري،حـ٣، ٣٢٨ـ ٣٣٠،إبن خلدون ،حـ ٢، ٤٩١ . للمزيد انظر محمد بن أحمد العقيلـي ، تـاريخ المخلاف السليماني (الرياض:منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)حـ١ ، ٧١ وما بعدها ، أحمد بن عمر الزيلعي ، الأوضاع السياسية والعلاقات الخارجية لمنطقة جازان (المخلاف السليماني)في العصور الإسلامية الوسيطة (الرياض:مطابع الفروق،١٤١٣هـ/١٩٩٢م)،٢٥ وما بعدها .

(٣) أبو عبد الله عمر الواقدي ، فتوح الشام (بيروت : دار الجيل ، د . ت) حـ١، ٢٠ وما بعدها ، عبد الرحمن الشجاع ، اليمن في صدر الإسلام (دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٨هـ) ، ٢٧ وما بعدها ، ابن جريس ، دراسات ،حـ١ ، ٥٥ ـ ٩٠ .

وإذا بحثنا في أمهات المصادر المبكرة نجدها لا تفصح عن سير الأحداث التاريخية والحضارية في بلاد عسير ، أو مايعرف ب(مخلاف جرش قديما) ، وإنما نجد معلومات عامة عن بلاد تهامة والسراة، وربما أطلق اسم اليمن على كل ما هو جنوبي مكة المكرمة، وأحياناً يرد أسماء لبعض الأقاليم والمخاليف في هذه البلاد الواسعة (١) . وفي اعتقادي أن منطقة عسير لم يتبدل وضعها السياسي و الإداري خلال القرنين الأوليين للهجرة ، لاسيما بعد القضاء على حروب الردة، ثم دخولها تحت مظلة الخلافة الإسلامية في المدينة، ثم في الشام، والعراق . فكان الخليفة هو الذي يولي الأمراء وموظفي الدولة على الولايات، ولم تكن منطقة عسير ولاية مستقلة ،وإنما كانت تابعة إدارياً لوالي الحجاز ، أو مكة المكرمة ، وهذا الوالي هو الذي يعين من قبله من يتولى أحوال البلاد في كلٍ من عسير وما جاورها من البلدان (٢) .

---

(١) فيقال مثلاً :- مخلاف جرش ، أو تبالة و بيشة ، أو نجران وغيرها ، للمزيد انظر ، اليعقوبي ، كتاب البلدان ،٣١٤ وما بعدها ،ابن خرداذبه ، ١٣٣-١٣٩ ،ابن جريس ((بلاد تهامة والسراة كما وصفها الرحالة ...)) ، ٧٣ وما بعدها .

(٢) صالح أحمد العلي، " إدارة الحجاز في العهود الإسلامية الأولى " مجلة أبحاث ، مج ١-٤ (١٩٦٨م) ٣٢-٥٧. تقى الدين محمد الفاسي ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ،(بيروت : دار الكتب العلميه ، د - ت)،جـ٢، ٢٦٢- ٢٦٥ .

Jacob Lassner " Provincial Administrion Under The Early Addasid : The Ruling Family and the Amsir of Iraq "Studia Islamic. 50(1979) 21- 35,J.Lassner "Provincial Administrion Under the Early Abbasid : Abu _ Jafar al-Mansur .and the Governore of the Haramayn " studia Islamica , 49 (1979) , 39 – 54 , S . B . samadi . " some Aspect of the theory of the state and Administration Under the Abbasids " Islamic Culture . 29 , No. 2 (1955) ,120–150, Hugh kennedy' 'Centeral Government and Provincal Elites in The Early Abbasid Calipate "Bulletin of the School of Oriental and African Studies 44(1981),26–38; Ghithan .A.Jrais,"The Governorship in the Hijaz During .The Early Abbasid period (132–232 A.H/749–846) Ages (مجلة العصور) ,7,part.I (1992),13– 21

ومن يقارن أوضاع عسير الإدارية والسياسية في عهد الخلفاء الراشدين (١١ - ٤٠ هـ / ٦٣٣ - ٦٦٠ م)، أو في عهدي خلفاء بني أمية وبني العباس (٤٠ - ٦٥٦ هـ / ٦٦٠ - ١٢٥٨ م) ، فإنه يجد أوضاعها في الفترة الأولى أفضل وأقوى لقربها من عاصمة الخلافة الإسلامية في المدينة ، وكذلك قربها من عصر الرسول(صلى الله عليه وسلم) (١) . أما أحوالها في عصور بني أمية وبني العباس ، فقد أصبحت جزءاً من ولاية الحجاز التي صارت ملئية بالفتن والثورات ، ضد الخلفاء الأمويين والعباسيين، بل أصبحت عسير وعموم بلاد جنوب الجزيرة العربية ميداناً للثورات السياسية والمذهبية ، كما صارت بيئة مناسبة للنزاعات والصراعات القبلية المتنوعة (٢) .

---

(١) كان يوجد في العسيريين من هاجر إلى المدينة وتعلموا في مدرسة الرسول (صلى الله عليه وسلم)ثم عادوا إلى أوطانهم كي ينشروا الإسلام بين أقوامهم ، ويسعوا إلى محاربة الرذيلة والحث على الفضائل وفعل الخيرات . وهذا من الأسباب التي جعلت أحوال عسير جيدة ومستقرة في عصر الرسول(صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين .

(٢) نلاحظ اضطراب الأوضاع في الجزيرة العربية بعد خروج الخلافة الإسلامية من الحجاز إلى الكوفه ثم الشام ، فظهر الكثير من الثورات السياسية والقبلية في عصر بني أمية، ثم برز بعض الدويلات المستقلة السنية والشيعية في اليمن واليمامة خلال عصر بني العباس ، وهذا مما أثر على الوضع السياسي العام في عموم بلاد الجزيرة العربية ، فانتشرت الفوضى وفقد الأمن وتسلطت القبائل بعضها على بعض . للمزيد انظر ، الطبري ، حـ٣ ، ٣٢٠ وما بعدها ، عبد الله بن عبد العزيز البكري ، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع ، تحقيق مصطفى السقاء(بيروت: عالم الكتب ،١٤٠٣هـ /١٩٨٣م) مج٢،حـ٣ ، ٩٦٢، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بيروت: دارالعلم للملايين،١٩٧٠م)،حـ٤، ٥وما بعدها،حـ٥ ، ٢٥٣ وما بعدها، الجرافي،١٠٥-١٠٧،العقيلي، تاريخ جـ١، ٧١ وما بعدها ، الزيلعي ، الأوضاع السياسية، ١٢ وما بعدها .

ونجد الحسن الهمداني من أهل القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) يحفظ لنا بعض المعلومات السياسية والحضارية عن أجزاء من منطقة عسير ،ونادراً ما نجدها في مصادر أخرى. فيذكر بعض النواحي في مرتفعات عسير ويشير إلى أسماء الأفخاذ والبطون التي تسكنها فيقول ؛ : "...**الرفيد بلد حصون و زروع لعنز... وسعيا، ويسكنها البشريون من الأ زد، وقد يقال :إنهم من بلحارث ثم يصلاها عنقة ، ويسكنها بنو عبد الله بن عامر من عنز ، ثم تندحة ، وهي : العين من أودية جرش ، وفيها أعناب وآبار، وساكنه بنو أسامة من الأ زد، ورأيت بعضهم ينجذب إلى شهران العريضة، والعيباء بلد مزارع لبني أبي عاصم من عنز ،ويليها وادي طلعان كثير المزارع لبني أسد من عنز والقرعاء لشيبة من عنز** " [١] وأضاف الهمداني إلى ذلك قولة :" **فالرفيد يسكنه حازمة من عنز ، والعوص يسكنه بنو حديد من عنز ، والراكس يسكنه بنو غنم من عنز ، والعين يسكنه بنو العراص من عنز ، وتمنية يسكنها بنو مالك من عنز ، والمسقي لشيبة من عنز**" [٢] وهذه المواطن التي أشار إليها هذا الجغرافي القدير تقع ضمن حاضرة أبها اليوم ،بل إلى الجهات الجنوبية والشرقية من المدينة نفسها [٣] .

(١) الهمداني ،٢٥٧.

(٢) المصدر نفسه ، ٢٥٧.

(٣) لمزيد من التفصيلات عن مدينة أبها وما حولها ، انظر ، غيثان بن علي بن جريس ، أبها حاضـرة عـسير ، ٤ وما بعدها.

كما يذكر أسماء مواطن وبطون عديدة في الجزء الشمالي من منطقة عسير ، وبخاصة سروات الحجر بن الهنؤ الأزدي والتي حاضرتها مدينة النماص ، فيقول : " **بطون الأزد مما تتلو عنز إلى مكة منحدرا : الحجر باطنها التهمة ألمع ويرفي أبنا عثمان في أعالي حلى ، وعشم** (١) ، **وذاك قفر الحجر ، وتنومة والأشجان ، ونحيان ، ثم الجهوة : قرى بني ربيعة من الحجر ،وعاسرة العرق، وأيد ، وحضر، ووراءه قرى لبني ربيعة من أقصى الحجر أيضاً ، وحلباء قرية لبني مالك بن شهر قبيلة الحجر على هذا يمانية مصال لعنز ، ومن شآميها بلد الوس ، والفزع من خثعم ، وشرقها ماجاور بيشة من بلد خثعم ، وأكلب ، وغوريها بلد بارق** " (٢) .

وتحظى بلاد الحجر (بللحمر، وبللسمر، وبنو شهر، وبنو عمرو) من هذا العالم اليمني عناية جيدة فيذكر أسماء بعض القرى والمراكز الحضارية مثل : عبل ، وصبح ، وباحان ، وبني ثعلبة ، وبنى نازلة في سروات بللحمر، كما يواصل ذكر مراكز أخرى في سراة وتهامة بللسمر وبني شهر وبني عمرو فيذكر تنومة ، وسدوان ، والجهوة ، والأشجان، ونحيان، وساقين ،وخاط، والخضراء ، وحلباء،والعرق ،وأيد

---

(١) حلي وعشم كانتا من مخاليف تهامة القديمة ،وهي اليوم تقع ضمن منطقة القنفذة ،مع أنها كانت تتبع منطقة عسير خلال القرون الماضية المتأخرة . للمزيد انظر أحمد عمر الزيلعي ، "المواقع الإسلامية المندثرة في وادي حلي (ت٣-٩هـ/٩-١٥م" حوليات كلية الآداب،جامعة الكويت ،ح٧ (١٤٠٦هـ/١٩٧٦م) ، ١-٧٧، حسن إبراهيم الفقيه ، مخلاف عشم (الرياض:مطابع الفرزدق ،١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م) ،١٩، وما بعدها. .

(٢) الهمداني ، ٢٦٠-٢٦١،للمزيد أنظر ابن جريس ،((بلاد السراة من خلال كتاب صفة جزيرة العرب ...)) ، ٧٨ وما بعدها.

(صدريد) [١] ولايقتصر على ذكر أسماء هذه المواطن، لكنه يشيرإلى أسماء البطون والأفخاذ التي تقطنها ، بل يذكر أحياناً مساحاتها وعدد المنازل أو القرى التي توجد بها ، وما تتوفر في بعضها من زروع وآبار ومصادر إقتصادية أخرى [٢] . ومن رحلات الهمداني بين اليمن والحجاز ، نجده يذكر بعض الولايات المحلية المحدودة في منطقة عسير فيذ كرمدينة جرش وحكامها فيقول : " **جرش هي كورة نجد العليا ، وهي من ديار عنز ويسكنها، ويترأس فيها العواسج من أشراف حمير**" [٣] فدلنا ذلك أن العواسج الحميريين هم حكام جرش، ولكنه حينما سمى بلدة جرش كورة ،فإنه بعد ذلك سمى: الجهوة في سراة الحجر مدينة ،وجعلها أكبر من جرش ،إذ قال : " **الجهوة مدينه السراة أكبر من جرش** " [٤] ، وذكر حاكمها يومئذ بقوله: " **وصاحبها الجابر بن الضحاك الربعي من نصر بن ربيعة بن الحجر من بني أثلة رؤوس**

---

(١) الهمداني،٢٦١، لمزيد من التفصيلات عن هذه المواقع في بلاد الحجر وبخاصة مناطق بني شهر وبني عمرو ، انظر ، غيثان بن جريس ((بلاد بني شهر وبني عمرو خلال العصر الإسلامي الوسيط)) مجلة العرب ،ج٩-١٠،س٢٧(١٤١٣هـ /١٩٩٢م) ،٦٠٧-٦٢٤ ، انظر أيضاً كتاب : بلاد بني شهر (الطبعة الثانية) (١٤٢٩ هـ/ ٢٠٠٨ م) ص ٢٠ – ٤١ .

(٢) لقد قمت ببعض الجولات في هذه البلاد (منطقة عسير) فوجدت أن معظم المواطن التي أشار إليها الهمداني لازالت تحمل نفس الأسماء التي أوردها في مصنفه. وأوصى أن يقوم أحد الباحثين لدراسة كتب الهمداني ، وبخاصة ما ورد فيها عن بلاد تهامة والسراة الواقعة بين اليمن والحجاز،ونحن على يقين أن من يقوم بهذه الدراسة سوف يضيف جديداً للمكتبة العربية والإسلامية.

(٣) الهمداني ، ٢٥٥، لمزيد من الاطلاع على مخلاف جرش (عسير حاليا)، انظر ابن جريس ((تاريخ مخلاف جرش ...))، ٦٣ — ٧٨ .

(٤) الهمداني ،٢٦١، انظر أيضاً ابن جريس ، بلاد بني شهر وبني عمر وخلال العصر الإسلامي الوسيط ، ص ٦٠٩ وما بعدها ، انظر : كتاب : بلاد بني شهر ، (ط٢) ص ٢١ وما بعدها .

بني نصر بن ربيعة بن شهر بن الحجر" [١] ، وفي سراة الحجر أيضا ذكر الهمداني موضعي :الأشجان، ونحيان ، ولكنه سمى الأول :ـ قرية ، والثاني وادياً، إذ قال :ـ " **ثم الأشجان قرية كبيرة ليس في السراة قريه أكبر منها بعد الجهوة** " [٢] ، وقال :– " **ثم نحيان واد مستقبل القبلة** " [٣] وذكر أن حاكميهما عندئذ هما :ـ " **علي بن الحصين العبدي من بني عبد بن عامر ، وابن عمه الحصين بن دحيم** " [٤] ، وأضاف إلى ذلك قولة " **ووراء الجهوة زنامة العرق وهي لجابر بن الضحاك** " [٥] وقال بعد ذلك " **ثم الباحة والخضراء : قريتان لمالك بن شهر** "[٦] وهذه الأسماء تمثل ولايات القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين)، وبخاصة : جرش ، والجهوة ، والأشجان ، ونحيان ، ويبدو أن هذه الإمارات الصغيرة لم تستمر ، إذ يقال بخراب جرش في أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) نتيجة للحروب التي وقعت بين عنز بن وائل ، وبين أهل مدينة جرش من العواسج . [٧] وقيل سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م) على يد قوات

---

(١) الهمداني ، ٢٦١.

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه، لمزيد من المعلومات عن هذه المواقع في بلاد بني شهر من منطقة عسير ، انظر ، ابن جـرس ((بلاد بني شهر وبني عمر و خلال العصر الإسلامي الوسيط)) ٦١١ وما بعدها ، انظر كتاب : بلاد بني شهر (ط ٢) ص ٢٢ وما بعدها .

(٥) الهمداني ،٢١٦.

(٦) المصدر نفسه .

(٧) هاشم النعمي ((عسير قبيلة وبلاداً)) مجلة العرب جـ ٣ـ٤ ، س ٢٧ (١٤١٢هـ/١٩٩٢م) ، ١٩٧، وللمزيد عن مخلاف جرش ، انظر ، ابن جريس ((تاريخ مخلاف جرش ٠٠٠)) ،٦٥ وما بعدها .

صقر بن حسان اليزيدي [١] ولربما كان التاريخ الثاني أقرب للصواب ، لأننا نجد ذكراً لمدينة جرش ومخلافها في مصادر القرنين السادس والسابع الهجريين [٢] .

أما الجهوة في سراة الحجر فقد قيل بخرابها سنة (٨١٩هـ/ ١٤١٦م) " **عندما طرقت المنطقة جيوش الغز المماليك** " [٣] وقامت على أنقاضها مدينة النماص " **واتخذت مركزاً للمنطقة بعد تدمير مدينة الجهوة التي تقع إلى الشرق منها** " [٤] وربما أن مدن جرش ،والجهوة والأشجان وغيرها في منطقة عسير اختفت ،أو بدأت عليها علامات التدهور والانهيار ، إثر الوباء الشديد الذي وقع في بلاد السراة سنة (٥٩٧هـ/١٢٠٠م) والذي يشير إليها ابن كثير فيقول : " **وقع فيها وباء شديد ببلاد عنز بين الحجاز واليمن ، وكانوا عشرين قرية ، فبادت فيها ثمان عشرة لم يبق فيها ديار ولا نافخ نار ، وبقيت أنعامهم وأموالهم ولاقان لها ،ولا يستطيع أحد أن يسكن تلك**

---

(١) عبد الله أبو داهش، أهل السراة في القرون الإسلامية الوسيطة (٤٠٠ـ١٢٠٠هـ) (أبها : نادي أبها الأدبي ،١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)،٧٢.

(٢) الإدريسي ، جـ١، ١٤٦، البكري ،معجم ،مج١، حـ١، ٣٧٦. جمال الدين أبو الفتح يوسف بن المجاور ، تاريخ المستبصر ، تحقيق أو سكر لو فغرين (ليدن :مطيعه بريل ،١٩٥١م)حـ١، ١٣،حـ٢، ١٢٦، للمزيد انظر، ابن جريس ،((تاريخ مخلاف جرش ٠٠٠))،١٠٨

(٣) أبو داهش ، أهل السراة ، ٧٢، وللمزيد من التفصيلات عن مدينة الجهوة قديما في منطقة النماص ، انظر ، هاشم بن سعيد النعمي ((مدينة الجهوة الأثرية في سراة الحجر)) مجلة العرب ،ج ١١ـ١٢ س ٢١ (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ٧٣٨ـ٧٤٦

(٤) النعمى ، المرجع نفسه ،٧٤٠ وما بعدها، وللمزيد من التفصيلات عن مدينة النماص في بلاد بني شهر ، انظر :- غيثان بن علي بن جريس ، القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير أنموذجاً (الرياض:مطابع العبيكان ،١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) ، ١٣٥-١٦٨ ، وكتاب : بلاد بني شهر (ط ٢) ص ٢٣٢ وما بعدها .

القرى ولا يدخلها ،بل كان من اقترب إلى شيء من هذه القرى هلك من ساعته نعوذ بالله من بأس الله ، وعذابه وغضبه وعقابه ... "[١].

ونجد بعض مصادر العصور الإسلامية الوسيطة تشير إلى ملامح الأحوال السياسية المحلية في سروات عسير وما جاورها شمالاً وجنوباً من السروات ، وبخاصة مشيخات القبيلة في هذه البلاد ، وما هي عليه من الاستقلال والفوضى والاستبداد. فهذا ابن المجاور في أوائل القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) يصف أحوال هذه البلاد فيقول :

" يحكم على كل قرية شيخ من مشائخها ،كبير القدر ، والسن ، ذو عقل وفطنة ،فإذا حكم بأمر لم يشاركه ولا يخالفه أحد فيما يشيره عليهم ، ويحكمه فيهم ، وجميع من في هذه الأعمال لم يحكم عليهم سلطان ، ولا يؤدون خراجاً،ولا يسلمون قطعة ، إلا كل واحد منهم

---

(١) عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية (بيروت:مكتبة المعارف ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)،جـ١٣، ٢٦،للمزيد انظر ،ابن جريس ،دراسات في تاريخ تهامة والسراة ، حـ١، ٢٩٧. ونجد بعض الباحثين المتأخرين يذكرون إمارة آل يزيد في عسير والتي يعود أصولها إلى بني أمية ، ويشيرون إلى امتداد نفوذها في مناطق واسعة من بلاد تهامة والسراة ،كما يؤكدون على ظهور هذه الإمارة منذ القرن الثاني للهجرة وامتدادها عبر مر القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة ، وعندما نعود إلى المصادر التاريخية الحولية والمحلية المعروفة ،والتي تعرضت وأشارت إلى تاريخ نواحي عديدة في الجزيرة العربية، فإننا لا نجد ذكراً لهذه الإمارة اليزيدية الأموية ،وهذا مما جعلنا حائرين غير واثقين بما ورد في هذه الدراسات المتأخرة التي أسهبت الحديث في تاريخ هذه الإمارة اليزيدية الأموية في منطقة عسير .لمزيد من التفصيلات انظر ،شعيب بن عبد الحميد بن سالم الدوسري ، إمتاع السامر بتكلمة متعة الناظر (القاهرة : دار النصر للطباعة والنشر ،١٩٨٧م) ٧ وما بعدها ، محمود شاكر، عسير (بيروت:المكتب الإسلامي ،١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ١٢١ وما بعدها.

مع هوى نفسه ، بهذا لا يزال القتال دأبهم ،ويتغلب بعضهم على مال بعض ، ويضرب قرابة زيد على أموال عمرو، وهم طوال الدهر على هذا الفن ... وهم في دعة الله وأمانه ، وهم فخوذ يرجعون إلى قحطان وغيرهم من الأنساب " (١).

وقال أيضاً : " **فأما السرو فإنهم قبائل وفخوذ من العرب ليس يحكم عليهم سلطان ،بل مشائخ منهم وفيهم وهم بطون متفرقون "** (٢) .

ومن يستقرئ تاريخ بلاد عسير، ومما سمعنا من الرواة الأوائل يرى صحة أقوال ابن المجاور ،فأعيان القبائل وشيوخها كانوا القوة الرئيسة الحاكمة التي تدير شؤون أفراد قبائلها دون الرجوع إلى حكومة رسمية تتولى أمور البلاد عنهم .وقد بقي هذا الوضع سائداً حتى جاءت حكومة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل في العصر الحديث فحلت المؤسسات الحكومية محل مشيخات القبائل ، وصار عموم الناس يحتكمون إلى المؤسسات الإدارية الرسمية (٣).

ويستمر ابن المجاور يصف طبيعة سروات عسير حتى الطائف فيقول :-

---

(١) ابن المجاور ،حـ١، ٢٧

(٢) المصدر نفسه حـ١، ٢٦.

(٣) لمزيد من التفصيلات عن قيام المؤسسات الإدارية الحديثة في عهد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل ، انظر ، عبد الله محمد الشهيل ، فترة تأسيس الدولة السعودية المعاصرة (١٣٣٣-١٣٥١هـ/١٩١٥-١٩٣٢م دراسة تاريخيه تحليلية) (الرياض : دار الوطن ،١٩٨٤م)، ٣٨ وما بعدها ، غيثان بن علي بن جريس . عسير في عصر الملك عبد العزيز (دراسة تاريخية للحياة الإدارية والاقتصادية) (جدة :دار البلاد للطباعة والنشر ،١٤٢٠هـ/١٩٩١م)، ١٩ وما بعدها.

" جميع هذه الأعمال قرى متقاربة بعضها من بعض في الكبر والصغر ، وكل قرية منها مقيمة بأهلها ، كل فخذ من فخوذ العرب ، وبطن من بطون البدو في قرية ، ومن جورهم لا يشاركهم في نزلها وسكنها أحد سواهم ، وقد بني في كل قرية قصر من حجر وجص ، وكل من هؤلاء ساكن في القرية له مخزن في القصر ، يخزن في المخزن جميع ما يكون له من حوزه وملكه ، وما يؤخذ منه إلا قوت يوم بيوم ، ويكون أهل القرية محتاطين بالقصر من أربع ترابيعة "[١] .

وهذه البلاد العسيرية وما جاورها من السروات يراها المشاهد حتى اليوم مزدحمة بالقرى المتقاربة والحصون المتنوعة في أحجامها ومساحاتها وأهداف عمرانها [٢] ، وكما قال ابن المجاور **" فيها من الأمم ، والبلاد والمدن ، والقرى ما لا يعد ولا يحصى ، ولا تحويه أقلام الدواوين... "** [٣] . ويصف ابن جبير عام (٥٧٩هـ/١١٨٣م) أهالي سروات عسير حتى الطائف فيقول : **" لا ملبس لهم سوى أزر وسخة أو جلود يستترون بها ، وهم مع ذلك أهل باس ونجدة ،لهم القسي العربية الكبار كأنها قسي القطانين لا تفارقهم في أسفارهم "** [٤] . وأشار إليهم في هذا الجانب ابن

---

(١) ابن المجاور ، جـ١ ، ٢٧ .

(٢) لمزيد من التفصيلات عن أحوال القرى والهجر والمنازل وأنواع العمارة في منطقة عسير، انظر ، غيثان بن علي بن جريس ، عسير دراسة تاريخية في الحياة الاجتماعية و الاقتصادية (١١٠٠-١٤٠٠هـ/١٦٨٨-١٩٨٠م) (جدة:دار البلاد للطباعة النشر ،١٤١٥هـ/١٩٩٤م)،٣٧ وما بعدها.

(٣) ابن المجاور ، جـ١ ، ٣٨ .

(٤) محمد بن أحمد بن جبير ، رحلة ابن جبير (بيروت :دار صادر ،د.ت)، ١١٢.

بطوطة في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) فقال : " **هم شجعان أنجاد لباسهم الجلود ، وإذا وردوا مكة هابت أعراب الطريق مقدمهم ، وتجنبوا اعتراضهم**"[١] ، ثم قال : " **ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم** " [٢] لما يمتازون به من الصدق والأمانة وحسن الصحبة . كما وصف الهمداني أهل سروات قحطان وشهران وعسير (جنب، وعنز، والحجر) حتى الطائف بالفصاحة ، فقال : " **ثم الفصاحة من العرض في وادعة فجنب، فيام فزبيد ... فأرض سنحان، فأرض نهد، وبني أسامة ، فعنز ، فخثعم ، فهلال ، فعامر بن ربيعة ، فسراة الحجر ...** " [٣] ويشير هذه الجغرافي إلى الفصاحة عند بعض بطون وقبائل الجزيرة العربية ، ويذكر مستوى كل عشيرة أو قبيلة ، لكنه عندما يأتي إلى الحديث عن سروات عسير ، يذكر أن الفصاحة فيهم[٤] ، ثم يشير إلى " **أن أسافل سروات هذه القبائل ... دون أعاليها في الفصاحة** "[٥]، ولقد أصاب من قال: " **أفصح الناس أهل السروات** " [٦] ،

---

(١) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ،المسماة تحفة النظار في غرائب الأسفار ، تحقيق علي المنتصر الكتاني (بيروت:مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م) حـ١، ١٥٢.

(٢) المصدر نفسه، حـ١ ،١٥٢ ،لمزيد من الإيضاح عن كثير من أوصاف وعادات وتقاليد أهل عسير انظر ، ابن جريس ، عسير(١١٠٠-١٤٠٠هـ)، ٧٤ وما بعدها.

(٣) الهمداني ، ٢٧٩.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) عبد الرحمن بن زبن المرشدي ((غامد وزهران وبنو عمرو ((مجلة العرب ، ج ٣-٤، س٣٠ (١٤١٥هـ / ١٩٩٥م) ،٢٢٣، أبو داهش ، أهل السراة ، ٩١.

وربما ساعد أهل سروات عسير وما جاورها على ثباتهم في لغتهم أن جبالهم كانت " **أحصن الجبال للدفاع ، ورجالها من صفوة العرب** " (١) ، حيث احتفظ ساكنوها بفصاحتهم لصعوبة أرضهم وقلة الواصلين إليها . (٢) ولقد امتدح ابن جبير لغتهم حينما شاهد رجالاً منهم في موسم الحج ، فقال : " **والقوم عرب صرحاء فصحاء ... لم تغزهم الرقة الحضرية ولا هذبتهم السيرة المدنية** " (٣) وقال : " **أما فصاحتهم فبديعة جداً** " (٤) .

ونجد بعض ملامح حياة العسيريين في شئ من مظاهر حياتهم الحضرية، إذ هم أصحاب رعي ، وزراعة ، وصناعات يدوية، وتجارة . فقد عملوا في مهنة الرعي والاشتغال بها،فالهمداني يذكر بعض مواطن الرعي فيقول: " **والصحن مراع لبني شهر** " (٥) وأشار إلى سراة الحجر فقال : " **في غربيها البقر وأهل الصيد ، وشرقيها من نجد أهل الغنم**

---

(١) إبراهيم بن عبيد أل عبد المحسن ، تذكرة أولي النهي والعرفان (الرياض: مطابع مؤسسة النـــور ، د.ت)،حــ٣، ٢١،٢٠، أبو داهش ، أهل السراة ،٩١.

(٢) محمد بن أحمد العقيلي ، نجران في أطوار التاريخ (جدة : دار البلاد)١٤٠٤هــ / ١٩٨٤م) ، ٥٤.

(٣) ابن جبير ،١١١.

(٤) المصدر نفسه ، ١١٣. من خلال جولاتي في مناطق عسير ، وجازان، والباحة ،والطائف لمدة تزيد عن ربع قرن لاحظت أهل هذه البلاد لازالوا يتكلمون مفردات وعبارات فصيحة وردت في القران الكريم ، وكتب الحديث ، والمعاجم اللغوية . ولو ظهر بعض طلاب الدراسات العليا في جامعاتنـــا بدراسة الألفاظ المحلية في هذه الأوطان وإرجاعها إلى أصولها العربية ، فإنه بلا شك سوف يخرج لنا كم كبير من المفردات ذات الأصول العربية الأصيلة.

(٥) الهمداني ٢٦٢.

والإبل "[١] ولقد اشتهر مخلاف جرش بكثرة الإبل والأبقار والأغنام حتى أن الرسول ﷺ حمى لأهل جرش حمى حول بلدتهم[٢] .

أما الزراعة فتكاد تكون من المهن الرئيسة عند العسيريين ، فالهمداني يشير إلى الزراعة بقوله : "... **ثم تندحة وهي العين من أودية جرش ، وفيها أعناب وآبار** "[٣] ، ومن أهم ثمار مخلاف جرش،(عسير حالياً) الزبيب والتمر والدليل على ذلك أن الرسول ﷺ نهى أهل جرش عن خلط الزبيب بالتمر[٤] ، ويعد العنب الجرشي من أجود أصناف العنب ، وقد أثنى على جودته المؤلفون الأوائل ، أمثال : الأصمعي فقال : " **فأما الجرشي فأبيض صغار الحب أول العنب إدراكاً** "[٥] و يشير ابن منظور إلى العنب الجرشي أيضاً فيقول : ضرب من العنب أبيض إلى

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) شهاب الدين ياقوت، معجم البلدان (بيروت :دار صادر ،١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)،حـ٢، ١٢٦،جمال الدين أبو الفضل بن منظور،لسان العرب ،تنسيق وتعليق علي شيرى (بيروت :دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م)، حـ٢، ٢٥٠، صالح العلي "الحمى ...))، ٥٧٧ وما بعدها، حميد الله ، ٢٨٩-٢٩٠. ومن يتجول في منطقة عسير السروية والتهامية ،وكذلك الصحراء الشرقية يلاحظ وجود الجبال والأودية ، ذات الغطاء النباتي الجيد والصالح لرعي المواشي والبهائم بأنواعها ، بل إن عموم أهل عسير كانوا يمارسون الرعي إلى أواخر القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) (الباحث).

(٣) الهمداني ،٢٥٧.

(٤) أحمد بن حنبل .مسند الإمام أحمد بن حنبل (بيروت :المكتب الإسلامي ،١٣٩٨هـ)،حـ١، ٢٢٤، ابن جريس ، دراسات في تاريخ تهامة والسراة ،حـ١، ١٠٩، ١٢٤.

(٥) عبد الملك بن قريب الأصمعي ،كتاب النخل والكرم ،نشرة الأب لويس شيخو اليسوعي (بيروت :المطبعة الكاثو ليكية للأباء اليسوعيين ،١٩١٤م)،٧٥.

الخضرة رقيق صغير الحب " (١) ويتفق البكري والإدريسي مع ابن منظور والأصمعي على جودة عنب جرش (٢)

ويشير الهمداني إلى الزراعة بسروات الحجر في عسير فيقول : " **وبسراة الحجر :البر ،والشعير ، والبلسن ،والعتر ، واللوبياء ، واللوز ، والتفاح ، والخوخ ،والكمثرى ، والأجاص والعسل** " (٣) وقال أيضاً " **وبخاط نخلات** " (٤) وفي نحيان " **التفاح ،واللوز ، والثمار** " (٥). كما يشير ابن بطوطة إلى بلاد السراة الممتدة من الطائف حتى أبها في عسير فيصفها : "**مخصبة كثيرة الأعناب وافرة الغلات** " (٦) كما يؤكد الإدريسي على كثرة النخيل في بلاد جرش وما حولها (٧) .

أما المهن والحرف الصناعية . بمنطقة عسير (مخلاف جرش قديماً) فهي متعددة ، ونجد بعض المصادر التاريخية المبكرة تذكر بعضها ، فكتاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى أهل جرش في عدم خلط الزبيب مع التمر يدل على أنهم كانوا يجمعون هذين النوعين

---

(١) ابن منظور حـ٢ ، ٢٥٠، جواد على ،حـ٧ ،٧٣.

(٢) البكري ،مج١،حـ١ ،٣٧٦، الإدريسي ،حـ١ ، ١٤٦.

(٣) الهمداني ٢٦٢.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه ،٢٦١.

(٦) ابن بطوطة ، حـ١، ١٨٣.

(٧) الإدريسي ،حـ١ ،١٤٦. والمشاهد لأجزاء عديدة من بلاد شهران وقحطان وعسير اليوم ، والتي كان يشملها مخلا ف جرش قديماً يجدها تحتوي على مؤهلات اقتصادية عديدة ، مما ساعد أهلها على ممارسة الكثير من النشاطات التجارية والزراعية والصناعية المختلفة . (مشاهدات الباحث).

ثم يعصرونهما فيخرج لهم شراب النبيذ أو نوع من أنواع الخمور ، ولهذا فالرسول ﷺ نهاهم عن تلك المهنة [١]. كما ازدهرت دباغة الجلود وخرازتها في مخلاف جرش [٢]، ومما ساعد في نشاط هذه المهنة هو توفر المواد الخام المتمثلة في جلود المواشي ، ومواد التصنيع ، بالإضافة إلى وفرة أشجار القرظ الذي يعتبر من أفضل المواد المستخدمة في الدباغة [٣]. وقد اشتهر الأديم الجرشي حتى صار يصدر إلى خارج الجزيرة العربية [٤].

ومن الصناعات الحربية التي اشتهر بها مخلاف جرش (عسير) صناعة الدبابات والمجانيق والعرادات . والدبابات التي كانوا يصنعونها عبارة عن آلة من مادة الخشب مغطاة بجلود البقر يدخل فيها الرجل ، ويقربونها من الحصن المحاصر لينقبوه ، وهي تقيهم مما يرمى عليهم من حجارة [٥]. أما المجانيق والعرادات فهي من الآت الحصار التي ترمى بواسطتها الحجارة الثقيلة على الأسوار [٦].

---

(١) ابن حنبل، حـ١، ٢٢٤، ابن جريس ،دراسات ،حـ١، ١٠٩، حميد الله، ٢٩٠.
(٢) ابن المجاور ، جـ١، ١٣.
(٣) أحمد فاروق "دباغة الجلود وتجارتها عند العرب في مستهل الإسلام " مجلة العرب ، جـ٧-٨ (١٣٩٦هـ /١٩٧٦م) ، ٥٣٨ وبعدها ، أحمد عمر الزيلعي ، مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١-٤٨٧هـ) (لرياض:عمادة شؤون المكتبات جامعة الرياض، ١٤٠١هـ ٤٧٨هـ)،١٨٩-١٩١.
(٤) ياقوت ،جـ٢، ١٢٦،جواد علي ،جـ٧، ٥٨٧،الزيلعي، مكة ، ١٨٩ -١٩١.
(٥) ابن منظور ،جـ٤، ٢٧٧.
(٦) المصدر نفسه ،جـ٩، ١٢٣.

ويذكر أن الأغنياء من أهل مكة المكرمة والطائف وغيرهم من حواضر شبه الجزيرة العربية كانوا يذهبون إلى بلاد جرش ليتعلموا بعض الصناعات الحربية ، قصد حماية أنفسهم وأموالهم ، وممن ذهب إلى هناك أيام الرسول ﷺ عروة بن مسعود الثقفي ، وغيلان بن سلمة اللذان سارا إلى جرش وأقاما فيها يتعلمان صناعة العرادات والدبابات أثناء محاصرة الرسول ﷺ لمدينة الطائف .(١) وهذه الرواية وغيرها من الروايات تؤكد ما كانت تحتله جرش (عسير) من مكانة مهنية ، خاصة في المهن الحربية (٢) .

أما الحياة التجارية في عسير فلم تكن أقل من غيرها من الأعمال الأخرى ، ولولا نشاطها التجاري لما راجت فيها الصناعات ذات الإنتاج الحيواني ، والمنتوجات الزراعية التي كانت تفيض عن الحاجة وتصدر إلى أسواق الحواضر الكبرى في اليمن والحجاز ، ونجد مؤلفو العصور الإسلامية الوسيطة يفصحون عن صادرات سروات عسير وما جاورها إلى أسواق الحجاز ، فابن جبير يشير إلى تصديرهم الكثير من الأطعمة والحبوب إلى أسواق مكة ، ثم مقايضتها مع سلع أخرى يحتاجونها في أوطانهم (٣).

---

(١) ابن هشام ،جـ٤، ١٢١ ،الطبري ،جـ٣ ، ٨١ -٨٢ ،ابن جريس ، دراسات ،حـ١ ، ١١١، ١٢٦.

(٢) كانت منطقة عسير مليئة بالحرف والمهن اليدوية المتنوعة كالنجارة ، والخياطة والصباغة ، والتعدين والصياغة ، وحرف كثيرة يصعب حصرها في هذا المقام ، للمزيد انظر ، ابن جريس ، عسير (١١٠٠ - ١٤٠٠ هـ) ، ١٤٧ وما بعدها .

(٣) ابن جبير ، ١١٠-١١١.

كما يذكر ابن بطوطة رخص الأسعار في أسواق الحجاز عندما يأتي إليها أهالي سروات الطائف حتى عسير بسلعهم المختلفة مثل : الحبوب ، والسمن ، والعسل ، والزبيب ، والزيت ،واللوز [١]، كما يصف أحوال أهل مكة الاقتصادية بسبب وفادة هؤلاء السرويين إليهم فيقول : " **فيرغد عيش أهلها ،وتعمهم المرافق** " [٢]، وأضاف ابن المجاور إلى ذلك قولة " **فإذا دخلوا مكة- يقصد أهل السراة من الطائف إلى أبها – ملاؤها خبزاً من:الحنطة، والشعير ، والسويق ، والسمن ، والعسل ، والذرة ، والدخن ، واللوز ، والزبيب، وما شابه ذلك ...** " [٣].

ومما زاد في النشاط التجاري لمخلاف جرش (عسير) قربه من الطريق التجاري الذي كان يأتي من صنعاء ماراً بشرق مخلاف جرش

(١) ابن بطوطة ، حـــ١، ١٥٢.

(٢) ابن بطوطة ، جـــ ١ ، ١٥٢ ..

(٣) ابن المجاور ،حـــ١، ٢٧. وتذكر بعض الدراسات الحديثة في القرن الهجري الماضي تعليقات جيدة على ما ذكر ابن جبير وابن بطوطة وابن المجاور عن أهل السراة من الطائف حتى نجـــران ، فيقـــول صاحب الدراسة ((وجبال السراة معروفة ، وسكانها معروفون ، وكثير منهم من قبائل زهـــران ، وغامد ، وعسير ، وقحطان وغيرهم ، ومنهم أهل منطقة الباحة ، ومنطقة أبها ، وقـــد شـــاهدنا في العقد السابع من هذا القرن –يقصد الرابع عشر الهجري – إتيانهم بالميرة من بلادهم إلى : مكـــة ، والطائف وقوافلهم من الإبل . وكان من هذه الميرة الشيء الكثير من القمح الممتـــاز)) . للمزيـــد انظر ، عبد القدوس الأنصاري ،مع ابن جبير في رحلتـــه (م . ن : المطـــابع العربيـــة الحديثـــة ، ١٣٩٦هـــ/١٩٧٦م)، ١٩٧، ١٩٨.

حتى بيشة ثم الطائف ثم مكة المكرمة (١)، ومن المؤكد أن القوافل التجارية كانت تعرج على مخلاف جرش طلباً للراحة والتزود من سلعها كالحبوب والعنب ،وبعض الصناعات الجلدية ،وبعض المواشي كالإبل وغيرها ، وهذه السلع جميعها في أسواق جرش (٢).

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن محطات الطريق التجاري الذي يربط الحجاز باليمن عبر عسير ، انظر ، ابن خرداذابة ، ١٣٤-١٣٦، الهمداني ، ٣٣٨- ٣٤٠، الإدريسي ،حـ١، ١٤٤-١٤٩، المقدسي ، ٨٤ وما بعدها ، الزيلعي ، مكة ، ١٥٥ وما بعدها ، ابن جريس ، دراسات ، جـ ١ ، ص ٣٤٧ وما بعدها .

(٢) لم تكن الطرق التي تخرج من اليمن إلى بيشة حتى الطائف ومكة هي الوحيدة التي تجتاز منطقة عسير ، وإنما كان هناك طرق أخرى ، إحداها تأتي على قمم السروات من بلاد قحطان حتى أنها ثم تواصل شمالاً عبر سروات الحجر وغامد و زهران حتى الطائف . وقد تتفرع هذه الطرق من شمال أبها إلى فرعين ، أحدهما يواصل سيرة عبر السروات إلى الطائف ، والأخر ينحدر غرباً من سروات أبها إلى محائل ثم يواصل سيره حتى يلتقي بالطريق الساحلي الذي يربط جازان بمكة المكرمة . ويوجد هناك طرقاً صغيرة تربط بين الأجزاء التهامية والسروية تسمى (عقبات) ومفردها (عقبة) . وهناك طرق تنحدر من أعالي السروات شرقاً حتى تصل إلى تثليث وبيشة ورنية والخرمة وتربة عند سفوح جبال السروات من الشرق . كما أن جميع هذه الطرق لا تخلو من المحطات التجارية التي تقام فيها الأسواق الأسبوعية وأحياناً الموسمية . كما توجد أسواق أخرى عديدة في قرى وهجر وحواضر منطقة عسير السروية والتهامية . لمزيد من التفصيلات عن الحياة التجارية في بلاد تهامة والسراة بين اليمن والحجاز في العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة . وكذلك في منطقة عسير في القرون الماضية المتأخرة ، انظر ، ابن جريس ،عسير ١١٠٠-١٤٠٠هـ ، ص ١٦٣ – ١٨٧) ،للمؤلف نفسه ((ملامح النشاط التجاري لبلاد تهامة والسراة في العصور الإسلامية الوسيطة ((ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة (٢٥-٢٧/٨/١٤٢١هـ الموافق ٢١-٢٣/١١/٢٠٠٠م، نشر هذا البحث ضمن أعمال الندوة في كتاب : طرق التجارة العالمية عبر العالم العربي على مر عصور التاريخ ، حصاد رقم (٨) (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ١٥٧-٢٢٢.

وخلاصة القول : إن إقليم عسير (مخلاف جرش قديماً) كان يمثل حلقة وصل رئيسة بين اليمن والحجاز ، لما يتوفر به من مؤهلات بشرية واقتصادية واجتماعية تجعله يؤثر ويتأثر بما حوله ، مع أن اختلاف تضاريسه من مرتفعات ومنخفضات جعلته إلى حد ما في معزل عن القوى السياسية والإدارية في كل من اليمن والحجاز ، وبخاصة في العصر الإسلامي الوسيط ، فكانت القبيلة هي القوة السياسية التي تحكم أوطانها ، وإن اتصلت ببعض القوى الرئيسة في الحجاز ، أو في بلاط الخلفاء الأمويين أو العباسيين ، فإن ذلك لا يتجاوز فقط الاعتراف بشرعية الخلافة أو الإمارة دون الالتزام بأي تبعات سياسية أو إدارية أو مالية تفرضها السلطة المركزية على هذا الإقليم .